

فوزي البشتي



سلسلة
تُحقّق
إشتراكيّة
الثقافة

52

1982

المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس – الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

رموز الهرمسية في الثقافة العربية

كتاب الشعب

فوزي البشتي



المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

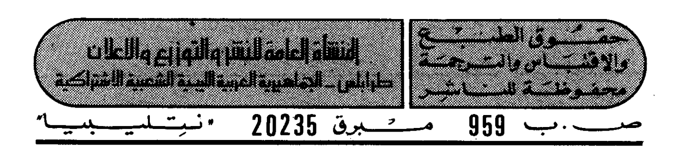
العدد 52 ابريل 1982

الطبعة الاولى

1391 و . ر ـ 1982 م

الطبعة الثانية

1394و . ر ـ 1985م



مقدّمـــة

هذه مجموعة من المقالات ، نشرتها على التوالي بصحيفة الزحف الأخضر ، وقد حاولت من خلالها أن أتبين مؤشرات ثقافة الردة ، التي تشيعها بعض المفاهيم المتخلفة والقيم الرجعية ، المدسوسة وسط الأجهزة الثقافية والتربوية في مجتمعنا العربي . ومثل هذه المؤشرات الرجعية التي تنتج ثقافة الردة والهزيمة ، يمكن أن نلحظها في الكتب المدرسية التي تتبنى كل ما هو متخلف ورجعي في الفكر والحياة ، كما يمكن أن نلحظها في جميع وسائل الاتصال الثقافي (مسموعة مرئيـــة ومقروءة) التي تستحوذ عليها وتوجهها بعض الأقلام والاتجاهات التي غدت رمزاً من رموز الهزيمة والتخلف والإستسلام .

ومن هنا فإنني أعتقد أنه من الضروري ، أن تكون هذه الصفحات منطلقاً للحوار ، ومحاولة لكشف وفضح وتعرية الأقنعة الزائفة التي ارتداها بعض الكتاب العرب لفترة معينة ، ثم ما لبثوا أن ظهروا على حقيقتهم بمجرد أن وجدوا المناخ الملائم الذي أتاحته لهم الأنظمة العميلة المستسلمة إلا أننا في البداية لا بد أن نحدد المقصود بثقافة الهزيمة . فنقول أنها الثقافة التي تشكل عائقاً من العوائق التي تعرقل مسيرة الإنسان العربي وتحد من انطلاقته . غير أن ذلك لا يكفي فلا بد من تحديد يمكن أن نلخصه في النقاط التالية :

1 ـ ان كل ثقافة لا تعبر عن طموح الإنسان العربي المناضل ضد الإستعمار والصهيونية وخليفتهما الرجعية المحلية ، كل ثقافة لا تناضل ضد كل ألوان ودرجات وأشكال التبعية والذيلية والإحتواء ، كل ثقافة تعادي الجماهير ولا تكافح من أجل اكتساح العلاقات الإنسانية الظالمة ودحر

القيم المتخلفة ، هي ثقافة هزيمة واستسلام وردة .

2 ـ كل ثقافة تدعو أو تبرر للحركات والإتجاهات الإنفصالية والإنعزالية في الأدب والفكر ، وتحاول أن ترسم منهجاً مخالفاً للروح القومية وتجتهد في الإنسلاخ عن المجتمع العربي ، كل ثقافة لا تتبنى بصيغة من الصيغ أو بصورة من الصور استراتيجية الوحدة الشاملة هي ثقافة هزيمة وارتداد ونكسة .

3 ـ كل ثقافة تدعو أو تبرر أو تقف في صف الاستغلال الطبقي والقهر السياسي والذل الاجتماعي ، والاستعباد الحزبي ، كل ثقافة تسقط الجماهير من حسابها وتدعو الى هيمنة الأحزاب والمؤسسات الفوقية هي ثقافة ارتداد وهزيمة ونكسة .

4 ـ كل ثقافة تعادي الجماهير وتتجاوزها ، لتتحول إلى أداة في يد أعداء الجماهير ، لكي تمكنها من التسلط والقهر وتثبيت أركان ودعائم.العلاقات الظالمة في

المجتمع هي ثقافة ارتداد وهزيمة ونكسة .

إنني أعرف ، أن ما أقوم به هنا هو جهد ضئيل وقاصر ،ذلك أن الهدف الذي أتجه إليه يحتاج إلى جهود كل المثقفين العرب الذين يؤمنون بهذه الأمة وبقدرتها على تجاوز كل محنها ، وتحطيم كافة الحواجز التي وضعت من أجل انطلاقتها ، لكنني بعد ذلك كله أكون سعيداً ان استطاعت هذه المقالات المتواضعة أن تثير قضية وتصبح دافعاً لجهود أكثر نضجاً وعمقاً في هذا المجال .

فئران الاستخبارات الأمريكية

عرف الوطن العربي الظاهرة الاستعمارية بكافة أشكالها وصورها وأنماطها ومساراتها ، ولقد ظل النمط الإستعماري الفعال والمسيطر وسط هذا التعدد ، هو النمط الاستعماري الذي يستهدف الثقافة العربية ويصوب سهامه نحوها محاولا افراغها من كافة محتوياتها الإيجابية وتثبيت الهيمنة لجوانبها السلبية القاصرة . . . وأنا أعني بذلك تلك الصور الغربية التي زرعت في قلب الثقافة العربية وفي عمق وجدان المواطن العربي . . وقد أدى تواجد هذه العوامل الثقافية الغريبة إلى وجود مجموعة من المداخلات الثقافية قادت في نهاية المطاف ومع استمرار الزمن وتكاتف الجهود الإستعمارية إلى تثبيت مجموعة من البصمات الفكرية والسلوكية في

جسم الثقافة العربية بهدف أحداث ترهل وسكون واحباطات متعددة تؤدي في النهاية إلى هيمنة الجراثيم الغريبة وسيطرتها وخلق فجوات وهوات ثقافية تشكل ممرات ومناطق عبور واستقرار داخل نفسية المواطن العربي لكي يجد نفسه في النهاية قابلاً لوضعه الجديد ، مجرد انسان مستلب فقد ارتباطه بكل جذوره الحضارية والفكرية حتى يصبح صالحاً لاستخدامه كأداة لتنفيذ المخططات الاستعمارية التي نحتت على مهل وفق ما تمليه مصالح الإستعمار الاقتصادية والاجتماعية .

ولكي لا نقع في خطأ التعميم - فإننا لا بد أن نلاحظ بأن المقصود بالإشارة إلى خطورة الثقافة الغازية ، لا يعني الإتصال الثقافي بين المجتمعات الإنسانية فتلك ضرورة لا يستطيع أي مجتمع إنساني أن يستغني عنها ، لأن هذا الإتصال يهدف بالدرجة الأولى إلى خلق عملية تلاقح وامتزاج واستفادة وتكامل بين الثقافات الانسانية المختلفة إذن ، ما الذي نعنيه

بالثقافة الغازية ؟ وما هي الدوافع التي تدفعنا إلى ادانتها وكشف اقنعتها والتنبيه الى خطورتها وتأثيراتها السلبية الهدامة ؟ . . .

بديهي أن الثقافة الغازية هي تلك الثقافة التي لا تهتم بمسألة الاتصال الثقافي وأهميته في نقل المعرفة الانسانية بين مجتمع وآخر ، وإنما تهتم بالدرجة الأولى بعملية غزو ذلك المجتمع الآخر وإخضاعه لمفاهيمها واطرها مستغلة ما يسميه المفكر الجزائري (مالك بن نبي) بظروف (القابلية للإستعمار) وبالتالي فإن الهدف الأول للثقافة الغازية هو إيجاد القابلية لدى المواطن العربي للاستجابة إلى رنين الأزرار الآتية من كل جهة أو مكان تتواجد فيه الظاهرة الإستعمارية ذلك أن مخططاتها تقوم على خلق الإستعداد لدى الانسان العربي للانسلاخ عن جذوره وتقبل وضعه المستلب الجديد بعد مرحلة طويلة من غسيل المخ المتواصلة وفق برامج

طويلة المدى تسهم فيها كل اجهزة الاستعمار الثقافية والسياسية . . . . .

ولكي نقيم الدليل العلمي على استمرار هذه المخططات والبرامج فاننا يمكن أن نبرز التجربة التي قام بها عالم النفس الأمريكي (بواز) بتكليف وتمويل من أجهزة الإستخبارات المركزية الأمريكية ، حتى نكشف طرائق الغزو الثقافي ونكشف بالتالي تلك الأقنعة الزائفة التي تختبىء خلفها مقولات وقيم السلطة السياسية الاستبدادية في الوطن العربي والتي تهدف وتسعى جاهدة الى تثقيف المواطن العربي بطريقة يتلاءم فيها سلوكه اليومي مع الغايات القريبة والبعيدة للأجهزة السياسية الحاكمة في الوطن العربي والمؤسسات الاستعمارية التي تصنع هذه الأجهزة الحاكمة وتمولها ، وتسعى بكل ما تملكه من امكانيات الى تثبيتها وتأمين سبل بقائها واستمرارها من أجل تكريس أساليب هيمنتها وخلق ضمانات البقاء لطغيانها واستبدادها ،

وحتى يبقى الوطن العربي في شراكها وتحت سطوتها إلى الأبد . . . .

● ● ●

أحضر (بواز) مجموعة من الفئران البيض إلى مختبره النفسي وخلال فترة زمنية محددة مسبقاً ، قام بدراسة السلوك اليومي للفئران اتجاهاتها ودوافعها ونمط حياتها وسبل تعاملها مع حاجاتها وعرف أن الفئران البيض لا تأكل الطعام في وضح النهار وإنما تلجأ إلى المناطق المظلمة في دهاليزها وهناك تشرع في تناول ما تحتاج إليه من طعام بهدوء ويقين نفس تام . . .

كان سؤال (بواز) لنفسه : مالعمل لتغيير دوافع الفئران والزامها بتناول طعامها في وضح النهار ؟ . . . وتوفرت القناعات لدى (بواز) بأن عملية التخلي والاكتساب في حياة الفئران باعتبارها واحدة من عمليات التثقيف تحتاج إلى اعادة النظر في عناصرها وتفكيك معامل ارتباطها ، واعادة صياغتها على نحو

جديد يساهم ويساعد في تنشئة الفأر الأبيض بحيث تكون هذه التنشئة وليدة ما يريده (بواز) في شخصية الفأر من اتجاهات ودوافع وسلوك . . . . .

وهكذا فقد وجد (بواز) نفسه أمام اختيارات جديدة ومحددة في مهمته الصعبة . . فقد كان مطالباً بالوصول الى نتيجة حاسمة تتعلق بالنجاح في القيام بعملية غسل دماغ للفأر الأبيض ثم مده بمجموعة من العناصر ليعيد تكوين شخصيته ، بحيث يصبح الفأر مستعداً ولديه **القابلية والإستعداد دونما** ارغام لتناول طعامه في المنطقة التي يحددها (بواز) حسب مشيئته وكان على (بواز) كلما تقدم (الفأر) لتناول طعامه الموجود في الغرفة **المظلمة أن يوجه اليه الصدمة** ، وإذا استقر الفأر فترة من الزمن في المنطقة البيضاء وجه إليه (بواز) صدمة كهربائية اخرى وهكذا دواليك . . . .

● ● ●

ماذا كان يريد (بواز) من خلال توجيه هذه

الصدمات لفأره الأبيض ؟ . . . .

لقد كان يريد تأزيمه وبلبلة غرائزه وتفكيره ، ووضعه في حالة من الفوضى والضياع بحيث يصل (الفأر) إلى قناعة تامة بأنه لا يعرف ماذا يعمل وثمة خطوة مهمة تأتي في أعقاب حالة الضياع وهي دفع الفأر للتخلي عن ارادته وتسليمها لـ (بواز) عبر الصدمات الكهربائية والإيحاءات القادمة اليه من (بواز) نفسه . .

بعد ذلك توجه (بواز) إلى فئرانه عن طريق صدماته ومنبهاته وإيماءاته ودفعها الى قبول الأمر الواقع بعد ان وفر القابلية العضوية لديها ودفعها الى اكتساب دوافع واتجاهات جديدة جعلتها تنسى طبعها الغريزي القديم وتقدم على الأكل في المنطقة المحددة لها ،وقد تم للفئران اكتساب هذا الطبع بعد أن وحدت بين غريزتها وحاجاتها للطعام واتجاهاتها لتناول الطعام في المنطقة المرادة . . .

وهكذا حقق (بواز) نجاحاً لتجربته على الفئران ، حيث استطاع أن يدجنها لصالح إيماءاته وأوامره وسمينا الفأر الأبيض بـ (فأر بواز) لأنه أصبح مطواعاً ومندمجاً مع أوامر استاذه ومدربه (بواز)[1] . . . .

● ❋ ●

في الوطن العربي توجد (بوازات) كثيرة تتعدد أشكالها وتتباين أهدافها وغاياتها ، ولكل واحد منهم أدواته ومخابره يلتقون في مهمة واحدة هي اعادة تنظيم وتكوين عملية التخلي والإكتساب داخل شخصية المواطن العربي وعلى خطى (بواز) وفئرانه البيض يسير (بوازات) الوطن العربي واثقي الخطى واضحي الهدف على دربهم الطويل وفي مشروعهم بل ومشاريعهم الاستعمارية المتعددة الجوانب والوجوه والأقنعة وثمة أدوات واسلاك كهربائية ومخابر لا تحصى تأتي من كل صوب ، والمواطن العربي هو الصيد الثمين

لهؤلاء العلماء الذين توظفهم اجهزة الاستخبارات الأمريكية والانجليزية والفرنسية لخدمة الوجه البشع للحضارة الأوروبية ، وعلماء الاستخبارات هؤلاء هم بدون شك لا يريدون أكل الإنسان العربي لأن ذلك لا يخدمهم فهم يريدون المزيد من التروس التي تلف دون كلل في آلتهم الإستعمارية البشعة . . . .

ماذا يريدون إذن ؟ . . . . .

انهم يهدفون بالدرجة الأولى الى تحويل المواطن العربي إلى مجرد (فأر) من فئران (بواز) البيضاء ، يريدون من المواطن العربي أن يتخلى عن بشرته وانتمائه وجذوره الحضارية متحولا الى مسخ عندما يتوقف عن عملية اكتساب القسمات الحضارية الجديدة التي يحتاجها كأساس من أسس النهضة العربية وكمنطلق من منطلقات صياغة مستقبل الأمة العربية وغدها .

ان مجاهداتهم تهدف بالدرجة الأولى الى خلق الانسان

العربي المطواع الفارغ المستسلم المهزوم من الداخل الذي يصبح بقابليته النفسية جاهزا للاكتساب والتخلي بموجب فاعلية وظائف العناصر الثقافية الآتية عبر الصدمات الكهربائية الثقافية التي يوجهها (بواز) القابع في أكثر من مكان ووجهة وموقع من الوطن العربي .

والمطلوب من الانسان العربي ان يكون ماثلا وعلى الدوام للأوامر والنواهي والتوجهات الصادرة اليه ، وبعد أن تتم عملية الاستئناس والترويض فإن الإغراءات كثيرة والمكافآت متعددة . . لعل أبسطها اعطاؤه وسام الرجل المتحضر العصري وفق مفاهيم دوائر الاستخبارات الغربية لمفهوم التحضر والعصرنة وإلا فما معنى اعطاء جائزة نوبل لحاكم مثل السادات ، سوى أنه كان فأراً جيداً من فئران (بواز) تلقى الأوامر من أسياده ونفذها بامتثال وطاعة وخضوع وذلة واعطى نتيجة لتجربة الفئران ما كان

نفسه يحلم بها ولو كان بواز يعلم أن السادات سيكون أطوع من فأره الذي أشقاه كثيراً لتخلص من فئرانه المشاكسة ، وأجرى التجربة على (السادات) نفسه ، وعندها كان في امكانه أن يختصر الوقت ويصل الى النتيجة التي كان يسعى اليها بوقت أقصر . .

كذلك ما معنى هذا الاهتمام الفجائي بكتاب ظلوا سنين طويلة لم ينتبه اليهم أحد ولم تولهم دور النشر العالمية أدنى اهتمام ـ وفجأة صارت تترجم اعمالهم ويشار الى مكامن العبقرية فيها وبدأت الجهود تبذل لإعطائهم جائزة نوبل أيضاً ؟ . . .

لماذا تهتم مؤسسات (بواز) الثقافية التي تمولها وتشرف عليها أجهزة الاستخبارات الأمريكية بكاتب مثل توفيق الحكيم أو نجيب محفوظ أو حسين فوزي أو لويس عوض ويتم تقديمهم للعالم لأول مرة بمثل هذا الضجيج ؟ . . .

لا شك أن الاجابة على مثل هذه الأسئلة لن تكون صعبة فمثل هذه النوعيات من الكتاب استطاعت أن تستجيب لصدمات (بواز) الكهربائية وتعليماته وعندما يتحول الكاتب الى فأر من فئران (بواز) فإن طريقة جديدة ينبغي أن تتبع في الاهتمام به والاحتفاء بموهبته لأن هذا الاحتفاء هو فرح بنجاح التجربة وبهجة بالوصول الى النتيجة التي تعب (بواز) كثيرا في الوصول اليها وهي أن يتحول الإنسان إلى فأر تجارب في معامل ومختبرات أجهزة الإستخبارات الأمريكية . . . . . وعندما تتوالد وتتكاثر هذه النوعية من الفئران فإن وباء من نوع آخر سوف ينتشر ، هو أخطر وأشد فتكاً من وباء الطاعون الذي تنشره الفئران العادية . . . .

هذا كله ، يضع الأمة العربية بأسرها ، في مواجهة عدوها الحقيقي المتربص بها ، على مدى التاريخ ،

تضعـف قوة من قوى الإستعمار ، أو يتزعزع ذيل من ذيوله ، وتنهار دعامة من دعاماته ، فيواصل تنفيذ مخططاته العدائية بالأدوات والدعائم الباقية ، لا يتوقف ولا يؤجل ، ولا يهدأ . من منطقة الى منطقة ، ومن مخطط إلى مخطط ، ومن منطقة نفوذ إلى أخرى . وباستخدام كافة الأدوات وكل الإمكانيات يتواصل الـدور الإستعـماري القـدر المعـادي لـلإنسـان وللإنسانية . .

انهارت بريطانيا ، فأصبحت بقايا مملكة عجوز . ولم تعد تملك سوى هذا الإرث التاريخي من الحقد على الشعوب ، وهذا الركام من المشاكل الداخلية التي لا تستطيع الفكاك من أسرها . وأخذت (فرنسا) تبحث عن سبل أخرى للحفاظ على هيمنتها ونفوذها دون أن يستطيع أحد كشف خواءها من الداخل وانهيار قواها ، ودون أن تتكرر هزائمها في افريقيا وتحطم أطماعها كما تحطمت أمام الإرادة العربية في الجزائر .

وأصبح الدور كله لزعيمة « الامبريالية » ـ أمريكا ـ ، لمؤسساتها واستخباراتها ، وترسانتها العسكرية المهزومة في « فيتنام » وأحقادها التاريخية على كل الشعوب ذات الأصالة الحضارية ، واعتمادها في فرز سمومها على المرتزقة من كافة الاصقاع .

وهكذا فإن مواجهة هذا الأخطبوط الاستعماري الذي تتزعمه أمريكا ، هو قدر الأمة العربية ، وهو معركتها الخالدة والمستمرة ، حتى يتم الانتصار الذي لا بد أن يتحقق . لأنه سوف ينهي مرحلة كاملة بشعة ، كانت تجر ذيول الانحطاط ، ويفتح الطريق أمام طاقات الجماهير العربية من أجل ان تؤدي رسالتها الخالدة ، على المستوى القومي والإنساني ، مبشرة بعصر جديد تنمحي فيه كافة العلاقات الظالمة وتتحقق من خلاله سلطة الشعب السيد الذي يملك وحده ، سلطته وثروته وسلاحه .

ومن أجل ذلك فإن هذه المعركة التي تواجه فيها الأمة

العربية ، عدوها مواجهة مباشرة ، تحمل مقومات جديدة ، منطلقة من أرض الفاتح العظيم الذي يقود قومية المعركة وجماهيريتها .

ولعل هذا يفسر لنا ، لماذا تفقد قوى الاستعمار أعصابها ، حتى تصل الى مرحلة استعراض ترسانتها العسكرية ، كما حدث في العدوان الأمريكي على خليج سرت لأنها ولأول مرة في تاريخ عدوانها المستمر على الأمة العربية ، أيقنت أنها بدأت تواجه الجماهير العربية ، وقد تعودت في السابق أن تواجه حاكماً أو حكومة أو مؤسسة سياسية من السهل عليها تغييرها .

اما مواجهة الجماهير العربية ، فأمر جديد يجبرها على اعادة حساباتها .

من أجل ذلك كله ، فإن هذه المعركة هي نداء للثقافة لكي تضع ثقلها في معركة الحق العربي الواضح . ولكي تكشف كل الأقنعة ، حتى يتعرى

الأعداء من العملاء والخونة ، أمام الجماهير العربية وأمام صوت الحق والحقيقة ، وحتى تنزاح كل رموز الهزيمة وأصنامها ، وتسقط أمام وعي الجماهير العربية ونضجهاوقد كانت هذه الأهداف السامية ، وما تزال ، هاجساً أساسياً للثقافة العربية ، يحدد دورها في هذه المرحلة ويرسم لها ملامح المستقبل ويرسي دعائمه .

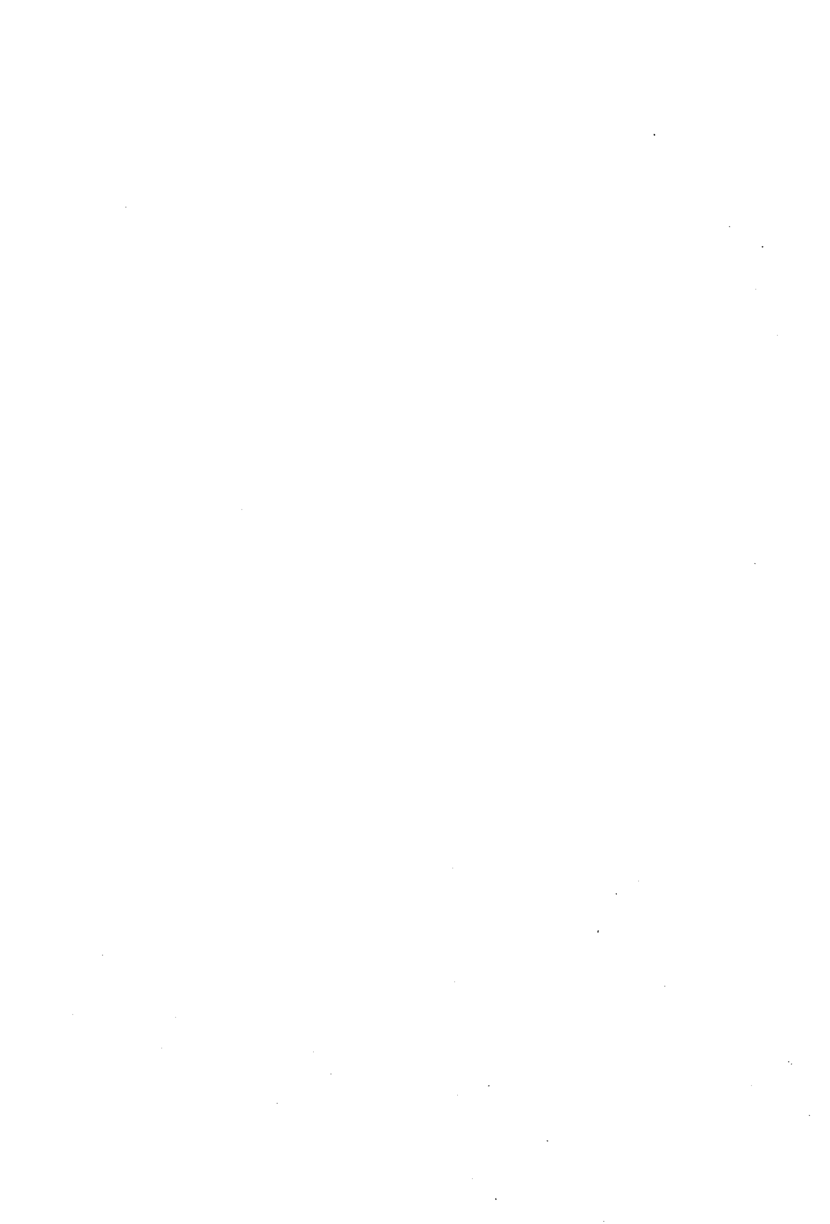
فالثقافة العربية التي تقدمت حركة النهضة العربية منذ نيف وقرن ، كانت تجد نفسها دوماً أمام قدر تاريخي بأن تكون خدين المعركة وخطها الأمامي .

وفي كل معركة تخوضها الأمة العربية ، كانت الثقافة التقدمية القومية الوحدوية ، إلى جانبها ، تجتاز امتحاناً قاسياً ، وتكشف على أرض المعركة المقاييس الصحيحة للعديد من المفاهيم التي تشكل أسس النهضة العربية وانطلاقتها .

وإذا كان المثقف العربي قد تعثر في فترة من الفترات

وتحول الى مجرد انسان هامشي بدون تأثير أو فعالية لأن الأنظمة السياسية أو الأطر الحاكمة قد جمدت فعالياته ، وقيدت انطلاقته ، وأرهبته بزنازينها ومعتقلاتها تارة ، وأغرتـه بكافة المغريات تارة أخرى ، إذا كان الأمر كذلك في مرحلة من المراحل فإن على المثقف العربي أن يستيقظ على زحف الجماهير التي انطلقت من أرض الفاتح العظيم لتكتسح كافة أشكال وانماط الأنظمة السياسية التقليدية ولمحو كافة العلاقات الاجتماعية الظالمة ، محققة عصر الجماهير ، حيث السلطة والثروة والسلاح بيد الجماهير وحدها ، دون أن يسيطر عليها حاكم أو يوجهها حزب ، أو تقهرها طبقة .

لا بد للمثقف العربي ، أن يستيقظ ويتخلص من قيوده ليلتحق ويلتحم بالجماهير التي تمارس سلطة الشعب وتبشر بها وتخوض معركة الحق والكرامة العربية .



هَدَفٌ جَدِيدٌ لِلصّهْيُونِيَّة

أدبٌ صهيوني .. بأقلامٍ عربيَّة

لعله من البديهي القول بأن اقامة الكيان الصهيوني الغاصب على أرض فلسطين العربية ، لم يكن فكرة طارئة بقدر ما كان جريمة من الجرائم البشعة ، التي اتبع في تنفيذها أكثر المخططات قذارة وبعداً عن الإنسانية ، لم تكن فلسطين العربية هي الهدف الأساسي ، ولكنها كانت مجرد بداية لانجاح الجهود الصهيونية التي تسعى الى طمس معالم الحضارة العربية والإسلامية ، وانتزاع الانسان العربي من جذوره القومية والإنسانية . . وخلق نوع من التفكك والتشكك والتشتت والإنهيار في جسد هذه الأمة العريقة .

ولم يكن سقوط (السادات) وخيانته وزرعه كورم

خبيث في جسم الأمة العربية ، نهاية لهذه المخططات الصهيونية بقدر ما هو استمرار لها وتثبيت لأسسها ، حتى يحقق الكيان الغاصب هدفه الرئيسي في اقامة « اسرائيل الكبرى » وبذلك تتحقق الخرافة التي أعطتها لهم كتبهم المزيفة : « لنسلك اعطي هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير الفرات » [تكوين 15 -18 ـ] ولقد لجأت الصهيونية الى خوض أولى مراحل تحقيق أهدافها بالإتجاه الى منطقة بعيدة كل البعد عن مناطق اطماعها وكانت القارة الأوروبية وأمريكا هما المسرح الذي شهد كل ألاعيب الصهيونية ومخططاتها من أجل التسلل الفكري الى أعماق الفرد الأوروبي ، بلملمة التراث اللاهوتي للفكر الأوروبي وشحنه بكل الأساطير والرؤى الغيبية والخرافات والقصص المنمقة التي ظلت تشكل دائماً وباستمرار الدعامة الأساسية للمزاعم الصهيونية ، ومن خلال تلك العملية استطاعت الصهيونية أن تستبدل الحقائق

بالأكاذيب وأن تضلل الرأي العام ، وتستثمر بكل جهودها وامكانياتها ذلك الدعم والتأييـد المستمر والدائم الذي منحته إياها القوى الإستعمارية وفي مقدمتها « بريطانيـا » التي تبنت فكرة الاحتـلال الصهيوني لفلسطين ، وظلت تسعى إليه حتى حققته بتنفيذ وعد بلفور المشؤوم .

تلك كانت المرحلة الأولى التي حققت للكيان الصهيوني الغاصب هدفه الإستيطاني الذي ما كان ليتحقق لولا المؤازرة والدعم المستمر الذي لقيه من القوى الإستعمارية لكن الإحتلال الصهيوني لفلسطين العربية ، لم يكن كافياً على ما يبدو من وجهة نظر منفذي المخطط الصهيوني ، ومن أجل ذلك كان لا بد من الإستمرار في دعم هذه الجريمة ، وتثبيت أركانها المهتزة ، وهنا بات من الضروري أن تحاول الصهيونية دفع أدبياتها الى الميدان ، بحيث يقرأ العالم أدباً يلتزم بالفكرة الصهيونية ويسهم في تضليل الرأي العام

العالمي ، وهكذا اغرقت الصهيونية مكتبات العالم بإفرازات أدبية تبرر جريمتها ابتداء برواية « تيودور هرتزل » [الأرض القديمة] ومروراً بروايات « يائيل دايان » ابنة السفاح « موشيه دايان » . . . وليس نهاية بتلك المحاولات الضخمة التي بذلت من قبل المؤسسات الصهيونية من أجل دفع كاتب صهيوني مغمور الى الفوز بجائزة نوبل للآداب العام 1966 ، ولم يكن ذلك الكاتب الصهيوني سوى « شاموئيل عجنون » الذي لم يكن كاتباً ذا قيمة تذكر ، لكنه كان صهيونياً حتى النخاع ، وكان ذلك يكفي لمنحه جائزة نوبل ، ويبدو أن الإيمان بالصهيونية بات شرطا رئيسيا للفوز بهذه الجائزة ، ولعل هذا يفسر لنا معنى فوز « السادات » المهزوم بها لأن الشروط أصبحت تنطبق عليه وصهيونيته أصبحت لا تحتاج الى نقاش ، وما دام الأمر كذلك فقد تقرر منحه الجائزة ، ولكي تؤكد الصهيونية انتماءه لها فقد جعلته يتقاسم الجائزة

مع زميله الصهيوني العريق « بيغن » فكلاهما « السادات وبيغن » من أصحاب الفضل على الكيان الغاصب ومن الذين يدعمونه ويؤازرونه ويسعون الى ان تتحقق تلك الأمنية الصهيونية الخرافة « من النيل الى الفرات » .

على أن الخطورة التي تمثلها الأدبيات الصهيونية تنحصر في كونها كانت ارهاصات حقيقية للدعوة الصهيونية ، حتى ان الأديب الفلسطيني الشهيد « غسان كنفاني » يعتبر الصهيونية السياسية نتيجة لارهاصات أدبية صهيونية مبكرة ما لبثت أن اندفعت بعد ولادة الصهيونية السياسية لتصير جزءاً منها تعمل بانضباط تحت شعاراتها وبتوجيه منها ولخدمة أهداف محددة لها سلفا ، ويقيم « غسان كنفاني » عمل الأديب الصهيوني بأنه هو الذي عمل على غسل دماغ العالم وتهيئته للإعلام الصهيوني والدعوة الصهيونية والأكاذيب الصهيونية . ولعل أخطر دور للأدب

الصهيوني هو نجاحه في التسلل الى عقل الغرب وفكره حتى لتحتوي التعليقات السياسية في الصحف الأوروبية جملاً كاملة منقولة بنصها من الروايات الصهيونية[2] لقد كان كل شيء يتم وفق خط محدد ومرسوم بدقة بحيث يصل في النهاية الى تحقيق سيطرة الكيان الصهيوني الغاصب على كامل التراب الفلسطيني والعربي ، وتحقيق اطماعه التوسعية في المنطقة . الا ان أكثر من ثلاثين عاماً من الاحتلال الاستيطاني لفلسطين العربية ، لم تستطع أن تثبت أركان الكيان الغاصب ، رغم الدعم الاستعماري المستمر ، فقد واجه الكيان الغاصب أربع حروب انهكت قواه وزلزلت دعائمه الهشة ، ولملم الشعب العربي الفلسطيني جراحه لتولد الثورة الفلسطينية ، التي ما تزال صامدة رغم المؤامرات والخيانات ، تقدم الدليل على أن هذا الشعب سوف يستمر في الصمود ولـــن يعرف الانحناء طريقه الى قامته ولا الاستسلام

سبيله الى أعماقه ، وازاء كل ذلك كان لا بد للحركة الصهيونية أن تفكر في مخطط جديد ، ولم يكن هذا المخطط الجديد سوى مشروع التسوية السلمية التي نفذها السادات العميل بكامل تفاصيلها ، ولست محاولاً التوسع في شرح معنى خيانة السادات واستسلامه المشين فقد ادانه كل الشرفاء واتفقوا على أن ما قدمه هذا المهزوم لم يكن سوى تدشينا لاستقرار الكيان الغاصب ودعماً لاستمراره وتثبيتاً لأركانه الخاوية ، بتحويل الاحتلال الى امتلاك وذلك من خلال تحويل الكثافة السكانية العربية الى كثافة يهودية ـ هجرة ومستوطنات ـ .

ولكن وكما تقول الباحثة ـ بديعة أمين . « مجلة آفاق عربية العدد 12 ـ أغسطس ـ 1979 » . ثمة حقيقة تقف بكل ثقلها في طريق المستعمرين الجدد تلك هي أن عملية تسوية سلمية لن يكتب لها النجاح ما لم ترافقها عملية غسل دماغ جذرية تستهدف استلاب الشخصية

العربية وشل وعيها وافراغها فكريا وروحياً من كل موروثاتها الحضارية والثقافية لتصبح أخيراً شخصية هزيلة خاوية مهيأة لالتقاط كل ما يلقى إليها من أفكار ومفاهيم مشوهة لا تبقى أمامها غير خيار واحد : قبول الوجود الاسرائيلي ، بارتياح كبير ومن ثم قبول الدور الموكل اليه في هذه المنطقة وبالتالي استكانة الجماهير العربية لقدرها المرسوم كعنصر استهلاكي متخلف لا دور له في هذه الحياة غير ان يرتدي من اللباس ما تنتجه معامل « اسرائيل » والغرب ومن الأجهزة والأدوات اليومية يستعمل ما تنتجه مصانع العدو ، ومن الطعام يأكل ما يحفظ في علب يحمل كثير منها داخل الأغلفة الجميلة ، السموم ومحفزات الأورام السرطانية والأمراض ، حتى يموت أو يسقط أو يخون ، كما سقط المهزوم وفرط في كل شيء .

إلا أنه تظل هناك عقبة لا يمكن اغفالها ، فطالما كان حملة الفكر الصهيوني ودعاته كتاباً صهاينة أو كتاباً غير

اسرائيليين ، ولكنهم ليسوا عرباً . فإن من غير المؤمل أن تحقق الغزوة الفكرية الصهيونية نجاحاً كبيراً وبالنتيجة يظل مصير المشروع الصهيوني الإستعماري طال الزمان أم قصر ، الفشل والانهيار ، واذن فإن الطريق الأسلم لتمريـر المفاهيم والقناعات الصهيونية إلى الإنسان العـربي ، هو انسان عربي ينطق بلسان عربي ويتوجه بكتاباته إلى قطاع واسع من القراء العرب .

وإذا كانت هذه القناعة قد وجدت طريقها الى التنفيذ عبر استقطاب الرئيس المصري المهزوم وتحويله الى ناطق رسمي باسم الأطماع الصهيونية في المنطقة ومنفذ لها . إذا كان الأمر كذلك على المستوى السياسي فإن هذه القناعة نفسها قد بدأت فيما يبدو تشق طريقها الى حيز التنفيـذ على المستوى الفكري باستقطاب كبار الكتاب العرب وتحـويلهم الى معبرين عن فكـر الصهيونية أو بمعنى آخر بدفعهم الى كتابة أدب صهيوني بأقلام عربية وهو ما انساق اليه « نجيب محفوظ » الذي

اجرت معه جريدة « السياسة » الكويتية لقاء ضم مجموعة من الكتاب المصريين ، وقد تحول « نجيب محفوظ » خلال هذه المقابلة الى بـوق صهيوني دون أن يستحي أو يخجل وإذا كان تأثير الرئيس المصري المهزوم كشخص سيظل ضئيلاً باعتباره مجرد عميل خائن ، سوف ينتهي الى ما انتهى اليه ، كل الخونة والعملاء على مدى التاريخ إذا كان أمر السادات المهزوم كذلك ، فإن خطورة تردي « نجيب محفوظ » وأمثاله ، تظل تحمل أكثر من خطورة ، باعتبار ان اجيالاً كاملة قرأت له وأعجبت برواياته ، وبالتالي فان زرع المفاهيم الصهيونية في أدبه سوف يمثل على المدى البعيد تأثيراً سيئاً على القارىء العربي العادي ، ولعل هذا التمهيد الطويل هو جزء من تلك الدهشة والأسف الذي اجتاح اعماقي كقارىء لنجيب محفوظ ، وأنا ألتقي بـوجـه آخر لهذا الروائي ما عرفته من قبل ولا لمسته في كافة رواياته وقصصه ومواقفه أيضاً ، لقد استطاع نجيب

محفوظ أن ينحت بصبر ودأب ملامح الرواية العربية ، عندما كتب « ثلاثيته » الرائعة عن التطور الإجتماعي والسياسي للشعب العربي في مصر ، وعن ثورة 1919 وعن حواري مصر العربية وازقتها ومدنها القديمة وإنسانها الكادح ، ثم فاجأنا بالتكشير عن هذا الوجه « الصهيوني » القذر ، وهذا التنكر لكافة القضايا التي سبق له أن طرحها في أدبه ، ولم يكتف بذلك بل سمح لنفسه بكل وقاحة أن يفلسف للفلسطينيين مشروع التسوية السلمية الذي يسعى اليه رئيسه المهزوم وكأن الفلسطينيين مجرد شعب من الأطفال القصر الذين يحتاجون لحكمة « نجيب محفوظ » واجتهاداته الصهيونية انه يدعو « الفلسطينيين » إلى القبول باستقلال ذاتي في حدود الدولة الإسرائيلية ؟ ! أي دولة لا مستقلة ولا تتبع الأردن[3] وهو يبرر ذلك بأنهم « أي الفلسطينيين » حين يكونون في نطاق دولة اسرائيلية فسوف يكونون في فلسطين ؟ ! ! أما إذا كانوا

مستقلين فسيكونون دولة أخرى أما الأسباب التي من أجلها ينصح بأن تكون هذه الدولة الفلسطينية تابعة لإسرائيل وغير تابعة للأردن فهي « إن الأردن دولة رجعية ولذا فإن نمو الدولة الناشئة سيكون محدوداً ، أما الاسرائيليون فانهم متحضرون ؟! ويا سلام على هذه العبقرية في التحليل والفهم .

أليس هذا وجهاً صهيونياً مفضوحاً ولا يحتاج الى أي جهد للتدليل عليه ، أليس هذا تثبيتاً للكيان الصهيوني الغاصب باعتباره النموذج المتحضر في المنطقة ومن ثم فإن عليه أن يستولي على جميع الأراضي العربية ويضمها اليه باعتبارها أنظمة رجعية ومتخلفة ومن واجب هذا الكيان المتحضر أن يدفع بها الى ركب الحضارة عندما تصبح تابعة له ؟!

وهل يأتي « نجيب محفوظ » بجديد عندما يردد هذه الآراء ، أليست هذه هي الآراء التي نسمعها من

الصهاينة، ومن الأنظـمة الإستعمارية التي دعمت الكيان الصهيوني وغرزته في قلب الأمة العربية . ألم يردد فلاسفة الصهيونية ودعاتها هذا القول مـراراً لكي يبرروا جريمتهم أمام العالم قائلين : بأنهم انما يسهمون بذلك في تحضر المنطقة للارتفاع بها من مستواها المتخلف ؟ لكننا لا نريد أن نستبق الكلمات ولعله من الأفضل أن نترك ـ نجيب محفوظ ـ يسفر عن وجهه الصهيوني بارادته وكلماته .

انه يدعي أن وضع الفلسطينيين يؤلمه ، وهو من أجل ذلك يتمنى أن يراهم يعودون الى إسرائيل ـ لاحظ اسرائيل وليس فلسطين ـ ليصبحوا مواطنين داخل هذا الكيان المتحضر ـ على حد تعبيره ـ بدل هذا التشتت الذي هم فيه الآن لأن فلسطين هي أرض الصهاينة، وليست أرض العرب الفلسطينيين وهو تناقض واضح بين حماسه لدولة فلسطينية تتبع الكيان الصهيوني .

وبين تأكيد على عدم أحقية الفلسطينيين . في القول بأن فلسطين هي أرضهم .

ولكن لماذا ـ يا نجيب محفوظ ـ ؟

ويجيبنا الكاتب الصهيوني الجديد بقوله ـ هل كان أحد يتصور أن الاسرائيليين بعد أن تركوا فلسطين . . 2000 عام ، وأصبحوا فرنسيين أو انجليزا أو ألماناً وتغيرت الدنيا كلها . . هل كان أحد يتصور أنهم سيرجعون ؟

أمامك إذن شعب ظل مصراً على فكرته طوال 2000 عام ويستمر نجيب محفوظ ـ في الكشف عن توجهاته الصهيونية بحيث تنمحي صورة فلسطين تماما من وجدانه القذر ، ليتحول إلى أديب من أدباء أرض الميعاد وشعب الله المختار ؟

وهاكم هذا التحليل العبقري الآخر الذي لم يجرؤ أعتى أصدقاء الصهيونية على التصريح به ، وتفرد به

الصهاينة وحدهم ، وتلقفه الصهيوني الجديد ـ نجيب محفوظ ـ ليصبح شعاره وفلسفته . . انه يقول بالحرف الواحد . . ـ عندما استعمر الانجليز جنوب افريقيا ، لم تكن لهم صلات تاريخية أو عاطفية أو تراثية مع جنوب إفريقيا ، لقد ذهبوا الى هناك بقصد الإستعمار والإستيطان . . ولكن الصهيوني على العكس من ذلك . . كان يرجع الى وطنه ؟؟

ان ـ نجيب محفوظ ـ يعطي الحق للصهاينة في احتلال فلسطين باعتبارهم يعودون لأرضهم ، ومن أجل ذلك ـ على حد تعبيره ـ لا ينبغي أن نسمي تواجد الصهاينة على أرض فلسطين والأراضي العربية استيطانا أو احتلالاً بما في ذلك الأراضي المصرية التي احتلها الصهاينة . .

وبعد ذلك كله ، هل من الممكن أن نسمي ـ نجيب محفوظ ـ أديباً عربياً أو مصرياً أو حتى فرعونياً ؟ . لأنه لو كان يملك ذرة من الإنتماء ، لا نقول للعرب ـ بل حتى

لفرعونيته التي يتمسك بها ، لما اعطى للصهاينة الحق في احتلال أرضه ولست أعرف اسماً يمكن أن نطلقه عليه أكثر من كونه مجرد بوق صهيوني ، يردد صدى المقولات الصهيونية ويتحمس لها . . ولكن هل من الضروري أن نلفت نظر كاتب صهيوني مثل نجيب محفوظ الى الحقائق التاريخية ؟ وهل يمكن أن يقتنع ـ بيغن ـ مثلاً أو ـ موشيه دايان ـ بما يقوله التاريخ من أحداث ووقائع تتناقض مع الفكرة الصهيونية . .

ان الأمر يبدو غير مجد ، لأن الصهيوني يحاول أن يبحث عما يدعم فكره ولو ا ضطر الى خلط صفحات التاريخ وتزييف الوقائع وتشويه الأحداث . .

ولست أعتقد أن ـ نجيب محفوظ ـ يجهل التاريخ ، ولا أحب أن أتهمه بالتنكر لعقيدته الاسلامية ، ولا أود أن أطعن في ثقافته وسعة اطلاعه ، ولا أعتقد أنه غبي أو طفل انطلت عليه الاعيب الصهاينة واستطاعت أن تكسبه الى صفها بهذه السرعة ، ولا يهمني في نهاية

المطاف أن يتحول الى كاتب صهيوني أو يذهب الى الجحيم . .

ما يهمني هو أن الكيان الغاصب قد بدأ تنفيذ مخططه الجديد وهو أن ينجح في كتابة أدب وفكر صهيوني بأقلام عربية ولا بد أن تكون هذه الأقلام في حجم - نجيب محفوظ - أو توفيق الحكيم ، أو عبد الرحمن الشرقاوي ، وغيرهم من بقية الشلة القذرة الذين سقطوا في أحضان الصهيونية ، كما سقط رئيسهم المهزوم وخان .

ومعنى ذلك أننا سنقرأ في المستقبل أدباً صهيونيا يكتبه عرب وستظل كتب هؤلاء العرب - عفوا - هؤلاء الصهاينة تتسرب إلينا كما يتسرب الوباء . . . والهدف من ذلك كما لا يخفى على أحد ، هو خلق نموذج متكرر للسادات المهزوم . . نموذج يقبل الهزيمة والاستسلام والذل . . ويفرط في الأرض والعرض [3]



فِكْرُ الزّرُوقْ أمْ فِكْرُ الجَمَاهِيْر

طيلة خمسة أيام متتالية ، ظللنا نتابع أخبار تظاهرة غريبة ، في مدينة مصراتة ، اسمها مهرجان الزروق ، ولم تكن اقامة المهرجان مفاجأة ، فمنذ بداية هذه السنة والاستعدادات تتواصل لاقامة هذا المهرجان وقبيل انعقاد مهرجان الزروق بأيام ، كثفت لجنة المهرجان جهودها وقامت بتغطية اعلامية واسعة ، جعلت جثة الشيخ الزروق تنتصب في كل مكان ، وكأنها أكثر أهمية من انعقاد المؤتمرات الشعبية واحتفالات الأجلاء ، وحوار الجماهير حول منطلقات النظرية العالمية الثالثة ، وجهودها من أجل تكريس فكر عصر الجماهير والتبشير به ، لكن مهرجان الزروق استطاع أن يضع قضايا الجماهير في الدرجة الثانية ليحتل مكان

الصدارة . . الجدران مغطاة بملصقات عديدة تعلن عن بداية مهرجانه الكبير والإذاعة المرئية تبث أخبار المهرجان وتدعو الجماهير الى حضوره ، فمثل هذه المناسبة لا تتكرر كثيرا . . وقبيل بداية المهرجان يطل الأستاذ علي مصطفى المصراتي والدكتور علي خشيم من الشاشة الصغيرة ليتحدثا للمشاهدين عن فتوحات الزروق الفكرية . .

يتحدثان عن تلاميذه ومخطوطاته وتأثيراته الفكرية المختلفة في حياتنا . . واهتمام العالم به . ويوم بداية المهرجان تربض مجموعة من الحافلات في الساحة الخضراء كي تنقل الذين يودون حضور المهرجان ممن لا يملكون وسائل نقل خاصة ، ومن الذين أقلقهم حضور المؤتمرات الشعبية ، ان افترضنا أنهم حضروها فآثروا أن يستبدلو مناقشة قضايا المجتمع بمناقشة قضايا التصوف والعزلة . . وفي جامعة الفاتح عكفت مجموعة من الأساتذة على كتابة أبحاث عن الزروق والزروقية ،

لأنهم باتوا يعتقدون ان كتابة هذه الأبحاث هي اهم من الاهتمام بطلبتهم الذين كانوا يؤدون امتحاناتهم ويحتاجون اليهم . .

وفي منشأة النشر يعكف الموظفون على تجميع تراث هذا الشيخ ونشره من أجل تحقيق اشتراكية الثقافة . . ويقضي شيوخ (الحضرة) أياماً ممتعة يستعيدون فيها أمجادهم ويستنبتون فيها (شواشيهم) ويتذكرون ما قد نسوه من سلاميات الشيخ الأسمر ومعلقات الشيخ الزروق . . ويتعطل كثيرمن الناس عن أعمالهم كي لا يفوتهم مشهد عودة الشيخ الزروق الى الحياة .

لكن أحداً من هؤلاء جميعاً لم يتساءل : لماذا يعود الشيخ الزروق في هذا الوقت بالذات لينزرع مثل لغز شديد الغموض على جدران البيوت وشاشة الاذاعة المرئية واعمدة الصحف وأحاديث الناس ؟

ما أهمية الحوار حول الطرق الصوفية في وقت تنعقد

فيه المؤتمرات الشعبية وتحتفل الجماهير بأعياد الاجلاء ويواصل الشعب تأكيد سلطته وترسيخ منطلقات نظريته العالمية الثالثة . . التي لا تؤمن بالفرد ولا بالطائفة ولا بالحزب ولا بالقبيلة . . وانما تضع الجماهير في قلب تجربتها وتناضل بها ومن أجلها ؟ . .

فمـاذا يمثل الزروق بالنسبة لكل هذا المنطلقات الرائدة ؟ . . وما الذي يمكن أن تضيفه كتبه ومخطوطاته للتجربة الجماهيرية ؟ . . وما أهمية الحوار حول الطرق الصوفية في وقت تطرح فيه جماهير شعبنا فكرا جديدا يدعو الى تخليص الانسان من كافة انواع وانماط الاستعباد ومن ضمنها ان يكون الانسان عبدا لذاته واستغراقاته الصوفية التي تجعله جزءاً غريباً عن المجتمع ؟

ما أهمية الحوار حول التصوف مهما كانت ابعاده ومراميه وسلبياته وايجابياته ان كانت له إيجابيات ؟

وكيف ينسى أساتذة الجامعة الذين أسهموا في المهرجان أن لجنة تثوير المناهج قد استبعدت التصوف فيما استبعدت من المواد الدراسيـة التي لا تخدم طموحات هذا الشعب وفكره ؟

وهل في امكان لجنة مهرجان الشيخ الزروق ان تقنعنا ان كتب الشيخ الزروق وطريقته الصوفية لا تتناقض مع فكر الجماهير وأطروحاتها التي تؤكدها وترسخها كل يوم ؟

أغلب الظن أن لجنة المهرجان والذين تجشموا مصاعب السفر ليسهموا في المهرجان لن يتمكنوا من اقناعنا بعدم وجود هذا التناقض الواضح بين فكر الزروق وفكر الجماهير . .

فالزروق كان صاحب طريقة صوفية ، والتصوف مهما قيل فيه هو نوع من العزلة عن الناس والاستغراق في الذات وصرف النظر عن قضايا الواقع ومعطيات الحياة.

يؤكد الغزالي : « ان المتصوف ينبغي عليه أن يلزم قلبه الحال ، التي يكون فيها وجود الشيء وعدم وجوده سواء عنده . ثم لينفرد في بعض الزوايا ، مؤدياً ما وجب عليه من الفرائض لا غير . ولا يشغلن نفسه الا بتلاوة القرآن ، أو تدبر معانيه أو مدارسة كتب الحديث أو ما جرى في هذا الباب » .

وقد جمع (القشيري) في الرسالة القشيرية خلاصة الأمر في قوله : (أدنى الذكر أن تنسى ما دونه ، ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر في الذكر عن الذكر) .

هذا بعض ما يدعو اليه المتصوفة ولولا اننا لانكتب مقالا عن التصوف لاستعرضنا العديد من الأمثلة التي تعادي الواقع كما تعادي الحياة والانسان تحيل المجتمع الى مجموعة من الكسالى السلبيين وهو أمر يتعارض مع العقيدة الإسلامية التي ترفض مثل هذه الاتجاهات الدخيلة ، ولو كان الاسلام ينزع الى

الترهب والانزواء ، لما استطاع ان ينطلق من الجزيرة العربية ، ضياء يهدي النفوس ويحرر الانسان ويقوده الى ميادين العمل الايجابي المثمر الخلاق ، ولما استطاع ان ينزرع في أعماق العرب الفاتحين سلاحا لهدم الطغيان ودك معاقل الفساد والعبودية وخلق أمة تتخذ من ايمانها منطلقا للعمل ودعوة للنضال واستماتة في سبيل نشر الحق ، ولو بقي المسلمون يتحاورون حول مفهوم الفناء والتلبيس والامتزاج والمستور والحلول والجذب (الغيبة) و (الاستغراق) (والكسب) والإشارة والرخصة والفقد والكشف والتعطيل والهوى والصحو . . وهذه كلها مصطلحات يهتم بها الصوفيون ، لو بقي المسلمون يهتمون بها لما فتحوا الفتوح ولا نشروا الرسالة ولا استطاعوا ان يكونوا خير أمة اخرجت للناس .

وليس الزروق بعيدا عن هؤلاء المتصوفة التجريديين المعادين للحياة والواقع . . ولا أعتقد أن

واقعنا وطموحاتنا وسعينا الدؤوب نحـو اكتساح التخلف والتضليل والعزلة عن الحياة والابتعاد عن الإسهام في خدمة قضايا المجتمع والانتصار لقضايا الجماهير ، لا أعتقد ونحن نسعى الى ذلك كله ان احياء فكر الزروق، الذي ربما كانت له مبرراته في فترة معينة ، يفيدنا ويخدم طموحاتنا خاصة إذا أدركنا أن كثيرا من الخوارق التي تحكى حوله هي أدوات تضليل للجماهير وتتفيه لعقولها ومدركاتها . . ولنأخذ بعض الأمثلة :ـ

يحدثنا الدكتور خشيم في كتابه « أحمد الزروق والزروقية دراسة حياة وفكر ومذهب وطريقة » يحدثنا عن بعض معجزات هذا الشيخ وخوارقه بقوله : « ولما كان مدفن الزروق يقع على حافة الصحراء ، قريباً من ساحل البحر ، على الطريق الى مكة فلا غرو أن تأتي أغلب كراماته ذات صلة بهذه الثلاثة وفيما يلي نورد شيئاً مما يرويه مؤرخو حياة الزروق عنه في هذا المجال .

مرضت ابنة المرابط عبد السميع الفيتوري ، فعميت وكسحت ، ومكثت على ذلك بضع سنين ، ثم أتى بها اليه فباتت عنده ، فأول من أتاها من الصالحين ـ بعد أبيها ـ سيدي عبد السلام الأسمر والشيخ سيدي أحمد الزروق ، فقال والدها لسيدي زروق : ابدأ . فقال : لا . يبدأ عبد السلام لأنه أقرب لها مني في الدم . فقال سيدي عبد السلام لأبيها أبدأ أنت ونحن نتبعك فوضع يده على رأسها وقال : يا بركة الرجال الصلاح ، فأنفتح شيء من بصرها . ثم وضع سيدي عبد السلام يده وقال ذلك فانفتح بصرها كله كأنه لم يكن به بأس ثم أمسكها سيدي الزروق من جناحيها فبرئت وقامت سليمة البصر والرجلين » .

فما رأيكم في هذه اللجنة من الأطباء النوابغ ؟!

ثم يورد لنا الدكتور خشيم قصة اخرى تدل على كرامات الزروق ومعجزاته . وفحواها : « انه كانت

توجد قبيلة من قطاع الطرق في طرابلس الغرب لم تكن لتنجو قافلة تمر بهم من شرهم ، وحدث أن مر الزروق واتباعه بهم فسلبوهم جميعا ولم يبقوا سوى ما يستر عوراتهم . . فقال احد الأتباع لبعض القطاع مشيرا الى الزروق : لدى هذا الرجل ذهب في سراويله . . فجاء هذا الى الشيخ وقال اخلع سراويلك ! فرد زروق : يا سبحان الله ! ان كشف العورة محرم في الدين ، فقال اخلعها أو اقتلك ، والشيخ يدافعه ، فلما اقترب منه قال الشيخ : يا أرض ابلعيهم فابتلعتهم جميعاً وصاروا يستغيثون : تبنا الى الله . . تبنا الى الله . . فقال زروق : اطلقيهم . . فأطلقتهم ، وخرج قطاع الطرق وتابوا ثم ذهبوا مع الشيخ وصاروا خدما له وهم يعرفون حتى الآن باسم خدام الزروق وهذه قصة أخرى يوردها الدكتور خشيم للتدليل على معجزات الشيخ الزروق :

« غضب سيدي فتح الله بن طاهر (دفين مصراتة)

ذات يوم من ابنه فضربه على رأسه فهشمها وخرج دماغه منها وجاء له بالطبيب فأعلن هذا يأسه من شفائه ، ونام سيدي فتح الله قلقاً مضطرباً نادماً على ما فعل ، فرأى في المنام سيدي الزروق يقول له : لا تنزعج يا ابن طاهر . ابنك سيعيش ، فادع الطبيب غدا ، ففعل في الغد ما أمر به وكانت دهشة الطبيب بالغة حين وجد رأس الفتى قد جبر من تلقاء نفسه وأغرب من ذلك كله هذه القصة : « كان من عادة زروق بعد استيطانه مصراتة أن يجلس في جابية قريبة من بيته في الصباح الباكر وعند المساء ، وكانت ملكا لفتى من أهل مصراتة يتيما وحين جاء الصيف وكان وقت زراعة القصب ذهب الشاب الى البئر ، بعد بذر القصب ليرويه فوجد الشيخ جالسا في الجابية واستحى ان يجليه فترك أدواته وانصرف ينظر الى زرعه ، وكانت دهشته لا توصف حين وجده أخضر ريانا كأنما سقي البارحة فعرف أنها احدى كرامات الشيخ وقال له :

« هيء للقصب أكياسا كثيرة ، فاحضر الفتى ما يعادل أربعة اضعاف عادته من الأكياس وملأها جميعا حتى حافتها ورغم ذلك لم يبد أنه نقص من القصب شيئا ثم حمل الأكياس الملأى الى بيته وافرغها وعاد ليملأها من جديد فتبعته أمه لتنظر ما الأمر فقال زروق : ها قد جاءت الشيطانة التي تهرب منها البركة . . املأ أكياسك قبل أن تصل » فملأ الفتى الأكياس وانهى كوم القصب مع وصول امه » .

هذا بعض ما يحدثنا عنه الدكتور خشيم في كتابه « أحمد الزروق والزروقية ـ دراسة حياة وفكر ومذهب وطريقة » من أعاجيب هذا الشيخ ومعجزاته فهل يمكن أن نعتبر انعقاد مهرجان الزروق هو جزء من الدعاية الاعلامية لكرامات الشيخ الزروق . . نرجو الا يكون الأمر كذلك : لأن ما نرجوه حقا هو ان يتفرغ الدكتور خشيم والأستاذ علي المصراتي وأساتـذة الجامعة الذين اسهموا في هذا المهرجان لمعالجة قضايا تهم الجمـاهيـر

وتخدم منطلقاتها الفكرية الراهنة . . بدل أن يتفرغوا لمثل هذه الخزعبلات . . ومبلغ علمي أن معظم الأساتذة الذين أسهموا في المهرجان لم يقدموا أي جهد علمي لخدمة هذا الواقع منذ حصولهم على شهاداتهم العلمية ولكي لا نقول انهم صاموا طويلا عن البحث العلمي وافطروا على بصلة الشيخ الزروق ، نتمنى من الله أن يهديهم الى اسهام أكثر فاعلية وايجابية لخدمة هذا الواقع .



رُمُوزُ الهَزِيمَةِ في الأدَبِ العَرَبيّ

لا شك أننا في حاجة الى وقفة جادة ، أمام هذا الركام الهائل من الموروث الثقافي لكي نكتشف سلبياته وإيجابياته ، كما اننا في حاجة الى تأمل واقع الثقافة العربية الذي لا بد أن يضعنا أمام مجموعة من المظاهر الثقافية السلبية والمتخلفة ، التي تحيط بنا وتؤثر فينا ، وتضعنا أمام حصيلة هائلة من الاطر السلبية التي ما زالت نطرح بشكل واسع ومكثف ، حتى تجعلنا على يقين تام بأن . . . استمرارها ، وململة صفوفها ، انما هي جزء من معركة الرمق الأخير التي يخوضها الفكر المتخلف امام زحف الثقافة الجماهيرية ، وفكر عصر الجماهير .

وبالرغم من أن الانتصار سيكون للفكر الجماهيري

لا محالة لأنه الفكر الذي يكرس حرية الانسان ويجسد كافة المثل والمفاهيم الشريفة، ويدعو الى اكتساح كل ما من شأنه ان يستعبد الانسان ويخنق انفاسه .

بالرغم من كل ذلك فإن بقاء مثل هذه الظواهر الفكريةالرجعيةهو أمر في غاية الخطورة . لأن مردودها على المدى الطويل ، لن يكون سوى تسميم عقول أجيالنا وايقاعها وسط دوامة من الإرتباك والبلبلة والتمزق .

لقد حاولت أن أشير الى بعض هذه الظواهر ، التي تمثلت في مهرجان الزروق ، الذي أنفقنا عليه الأموال لكي ننفخ في فكر ميت متخلف مريض ، ونضع مخططا لنشر كتبه وخزعبلاته مثل كتابه ـ شرح الحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي وكتاب ـ حزب البركات ووسيلة الفوز والنجاة ـ وكتاب ـ أصول الطريقة الشاذلية ـ و ـ شرح حزب البحر ـ وكتاب ـ مفاتيح العز والنصر في التنبيه على ما يتعلق بحزب البحر لأبي

الحسن الشاذلي - الى غير ذلك من الكتب التي ستعيد لجنة مهرجان الزروق نشرها لأنها في نظرها تمثل اضافة للفكر الاسلامي ولأننا سنظل جهلة ، ولن يتحقق لنا الفوز والنجاة ، إذا لم نطلع على - الكناشة - و - حزب البركات - .

غير اننا بالرغم من ذلك لا بد أن نلاحظ بأن مهرجان الزروق ، لم يكن سوى مظهر من مظاهر الفكر المتخلف الذي ما زال يزرع جراثيمه في كل أجهزتنا الثقافية والتعليمية ابتداء من برنامج الاذاعتين وليس انتهاء بالمناهج المدرسية التي لا تقدم لأجيالنا سوى التفاهة والسطحية والاحتفاء بكل المفاهيم الرجعية في الفكر والسلوك ، تلك المفاهيم التي يناضل شعبنا من أجل اكتساحها وتدميرها .

فإذا أضفنا إلى كل ذلك هذه الأدبيات الرجعية التي نغرق بها السوق ، وترتبط بأسماء كتابها كرموز كبيرة في الثقافة العربية . إذا أضفنا هذه النقطة فاننا لا محالة لا

بد أن نحس ان ثمة هجمة شرسة للثقافة الرجعية تغزو عقول قرائنا وشبابنا .

فتوفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ ، وأنيس منصور ، ومصطفى محمود ، وعبد الرحمن الشرقاوي ، واحسان عبد القدوس . . وغيرهم من رموز الثقافة الرجعية ، قد استطاعوا مع الأسف أن يتربعوا في وجدان القارىء العربي وأن يسيطروا عليه وان يوجهوا تفكيره في كثير من الأحيان ، حتى انه بات من الصعب أن تتحدث عن أحد هؤلاء الكتاب ، وتقول : انه قد يكون فنانا كبيراً، ولكنه أيضاً رجعي كبير . . كثيرون سوف يصيحون في وجهك . . ومن أنت حتى تقول هذا الكلام وتنتقص من قدر ومكانة هؤلاء الكتاب الكبار ؟ ولماذا لم يشر النقاد الى هذا الذي تتحدث عنه . . هل عميت ابصارهم جميعا واعطاك الله أنت وحدك . . الذكاء وسعة الأفق ، بحيث استطعت أن تنبه الى المضامين الرجعية المعادية للانسان

في أدب هؤلاء الكتاب الكبار ؟

وأنا أقول أن هذه التساؤلات صحيحة الى أبعد الحدود . . فليس هناك ناقد واحد أشار الى ما تمثله هذه الرموز الكبيرة في الأدب العربي من خطورة . .

. . وما حدث هو عكس ذلك تماماً ، عشرات المقالات كتبت تمجد هؤلاء . . ومئات رسائل الدكتوراة كتبت عن أدبهم وما يحمله من فكر تقدمي ، وآلاف المغالطات التاريخية ارتكبها النقاد وثبتوا من خلالها هذه الصورة المقدسة لهؤلاء الكتاب الذين تمتلىء كتاباتهم بكل ما هو رجعي متخلف مريض .

حتى عندما صرح ـ نجيب محفوظ ـ بملء صوته ـ ليس هناك شيء اسمه فلسطين ، هناك شعب اسرائيل الذي ظل يناضل 2000 عام حتى استعاد أرضه ـ .

حتى عندما صرخ هذه الصرخة البشعة ، ونشر

صراخه في جريدة السياسة الكويتية ، ظل النقاد العرب يعتبرونه أحد الكتاب التقدميين ، بل والثوريين أيضاً !؟

فما الذي يمكن أن يقوله الانسان بعد ذلك . . ؟

توفيق الحكيم ، ظل منذ أن بدأ الكتابة يخلص لفكرة واحدة هي الفرعونية ، ولم يكن في يوم من الأيام يؤمن بشيء اسمه عروبة مصر ، أو حتى بأدنى رابط يربطها بالعروبة .

كل مسرحيات الحكيم تنادي بالفرعونية ، وكل مواقفه تعلن عن كراهيته وعدائه للعرب والعروبة . . ومع ذلك فقد ظل النقاد العرب ، ومن ذوي الفكر القومي على الأقل في غفلة من أمر هذا الكاتب ، بل ان منهم من كتب عنه الدراسات الطوال عن القيم الثورية والنضالية وحتى الوحدوية في أدبه ومسرحياته .

ولم ينتبه أحد من هؤلاء إلى أن توفيق الحكيم هو رمز

من رموز التخلف والهزيمة في الأدب العربي ، إلا بعد أن أصدر كتابه عودة الوعي ـ الذي تطاول فيه على الزعيم الراحل ـ جمال عبد الناصر ـ

وكأنما قد انتبه النقاد فجأة الى أن ـ توفيق الحكيم ـ كان جبانا طيلة حياة ـ عبد الناصر ـ . . وكأي جبان لم يكن امامه الا ان ينتظر وفاة ـ عبد الناصر ـ لكي يشن عليه هجومه القذر .

وبالرغم من أن عدداً كبيراً من الكتاب ، أيقظتهم هجمة الحكيم ، ودفعتهم الى أن يردوا عليه بمقالات وبكتب مطبوعة وغير مطبوعة الا ان ردودهم جميعا كانت تصب في مصب واحد هو دفع التهم التي كالها توفيق الحكيم بدون حساب للزعيم الراحل .

الا انهم جميعا ، غفلوا أو تغافلوا عن الدافع الأساسي لهجمة الحكيم . . ذلك أن توفيق الحكيم بحكم اخلاصه للنزعة الفرعونية لم يكن يرى في جمال

عبد الناصر سوى عدو لدود لفكرته .

لقد كان عبد الناصر أول مصري ينتصر لعروبة مصر، ويعيـدلها وجهها العربي ، فيتحول بذلك الى رمز لكل المثل والمفاهيم القومية العربية ، ويناضل من أجل الوحدة العربية والتحرر العربي ، ويضع مصر في قلب المعركة العربية ، من أجل دحر مخططات الاستعمار والصهيونية ، التي تحاك ضد هذه الأمة .

كان جمال عبد الناصر عربياً ، وكان ذلك يكفي لكي يحقد ـ توفيق الحكيم ـ على هذه الزعامة العربية ، التي تصدت لبروز وجود الفكر الانعزالي الفرعوني ، ودفعت بمصر داخل الصف العربي ، عنصراً مؤثراً وفاعلا .

ولقد ظل توفيق الحكيم الجبان يدجل وينافق طيلة حياة عبد الناصر ، ولم يكن يجرؤ أن يعلن عن انتمائه الانعزالي بشكل مباشر ، وان أعلن عنه في مسرحه

الذهني المرتبك ، وأوهم القراء انه انما يستفيد من التاريخ ويكتب مسرحيات وروايات تاريخية .

ولم يكن الموقف ينطلي على أحد ، لكنه خطأ الهدنة مع الفكر المريض ، والاستهانة بما يمكن أن يخلفه من ردود فعل سلبية ، يكشران عن أنيابهما الصدئة بعد أن وجدا في نظام السادات المهزوم فرصة لنزع الأقنعة وكشف الحجب ومع ذلك فما زالت المقالات تدبج ، وما زالت الرسائل الجامعية تكتب عن التوجهات التقدمية والانسانية في أدب الحكيم .

وإذا سألنا أحد هؤلاء الكتاب ، أي مفاهيم انسانية وتقدمية تعني ؟

فانه يبدأ معنا ثرثرة طويلة لا تنتهي حول تقدمية ـ بيجماليون ـ أو ـ أهل الكهف ـ أو ـ براكسا ومشكلة الحكم ـ أو ـ المرأة الجديدة ـ وهذه جميعها مسرحيات للحكيم .

ثم يحدثنا عن مكانة نجيب محفوظ في الرواية العربية ودوره في ارساء دعائمها ، ثم يختتم كلامه ، إذا كان ـ واعيا ـ بأن مواقفهما الأخيرة هي مجرد ـ ردة ـ تدينهما ولا تلغي تاريخهما الأدبي . .

دعونا الآن نتوقف قليلاً أمام هذه الحجج التي يعتقد بعض كبار الكتاب انها حجج دامغة ، لا يمكن للانسان بعدها أن يدخل في حوار ، لا يسبب سوى الأرق والمشاكل ، اما ان توفيق الحكيم ، أرسى دعائم المسرح . ونجيب محفوظ أرسى دعائم الرواية ، فنحن لا نتحدث بلغة المقاولين ، نحن نتحدث كعرب ، نتحدث عن مضمون يتوجه الينا وفكر يتمشى مع منطلقاتنا ومبادئنا وايماننا بعروبتنا ولا يهمنا في كثير أو قليل من الذي أرسى دعائم الرواية أو المسرح ، بقدر ما ينبغي أن نهتم بالفكر الذي أرساه من خلال مسرحه ورواياته .

فهل ما يطرحه نجيب محفوظ أو توفيق الحكيم من

فكر ، هو في الأساس فكر يمكن أن يكون زاداً ومعيناً وسلاحاً من أسلحة النضال من أجل دحر التخلف والانطلاق الى الأمام . . ؟! الكتب التي بين أيدينا للحكيم أولا ولنجيب محفوظ ثانيا لا تقول لنا ذلك . . بقدر ما تعطينا مجموعة من الحقائق التي تؤكد على القيم السلبية في أدب هذين الكاتبين[3] .

● * ●

لقد كان توفيق الحكيم لامعاً على الدوام ، مثل أي نجم من نجوم كرة القدم أو السينما ، لكنه لم يكن شعبيا على الإطلاق . . لم يكن يقرؤه أحد . . ولم يستطع أن يؤثر في الحياة الثقافية ولم يستطع مسرحه أن ينجب تياراً أو اتجاهاً . ونحن لا يمكن أن نجد كاتبا مسرحيا في مصر يمكن أن يمت اليه بصلة .

ـ اما انجازه في الرواية فقد كتب عدة روايات لم يبرز فيها إلا عودة الروح وهي رواية مليئة بالعيوب الفنية ولم

تكن منطلقا لأي من الروائيين الذين أتوا بعده .

فالحكيم رجل يدرك أن أدبه عقيم . وان تواصله مع القراء ضعيف ، وحينما يلتفت حوله لا يجد له أي تأثير . . لهذا كان ممتلئا حقدا على كاتب لعب دورا كبيرا في الحياة الثقافية المصرية هو طه حسين .

وفي تاريخ الحكيم لم يرتبط بأي تيار شعبي ، وكأن نشاطه الصحفي في صحف الأحزاب المشبوهة ، والتي يتهمها غالبية القراء بالعمالة للسفارة البريطانية والأمريكية فيما بعد .

وهو رجل قادر على أن يغير مواقعه بسرعة وببساطة فقد أوهم الكتاب التقدميين بتقدميته، ولم يهتم أحد في عنفوان الاندفاعة الثورية والثقافية ، ان يتوقف للتحقق من صحة هذا الادعاء أو ذاك .

ورغم كثرة كتاباته في صحف ـ اخبار اليوم ـ في الأربعينات الا انه لم يؤخذ على أنه كاتب جاد ، وكانت

كتاباته نفسها كتابات صحفية خفيفة وضعت خصيصا للتسلية . وكان في أفكاره العامة يتفق مع خط الصحيفة التي تناصر القصر الملكي ، وكافة الأجهزة الرجعية .

هذا الرجل العاجز عن التواصل الشعبي مع قرائه ينتقل الى الصفوف الأخرى الى الكيان الصهيوني مباشرة وكان كثير التباهي بأن ـ أبا ايبان ـ وزير خارجية العدو الصهيوني ، قد ترجم له روايته ـ يوميات نائب في الأرياف ـ الى العبرية واذا كانت كتيبة تطبيع العلاقات المصرية الصهيونية قد بدأت الحركة يتقدمها توفيق الحكيم وحسين فوزي مستندة الى التيار الانعزالي الفرعوني القديم آخذة معها أصحاب المواهب الهزيلة مثل ـ ثروت أباظة واحسان عبد القدوس وانيس منصور ، فاننا لا نستطيع أن ننكر موهبة نجيب محفوظ ولا امكانياته ، الا ان الدراسة المتأنية تجد انه لم يقدم عنصرا ثوريا على الاطلاق في رواياته ، اعني ان الشخصيات كانت عاجزة ومترددة بل خائبة ومنحلة أحيانا

ولعل هذا يبرر لنا موقفه الأخير الذي يقدمه لنا كواحد من رموز الهزيمة والخيانة في الأدب العربي .

هَـذِهِ الحَرَبُ،
الَّتِي أَنْتَجَتْ ثقَافَةَ الرِّدَّة

الحرب الثقافية ، أو الفكرية ،ليست حربا مكشوفة يدور رحاها في وضح النهار،ولكنها حرب خفية لها وسائلها ومناهجها الخاصة : التسلل والتخريب والاستيـلاء من الداخـل على العقـول والأفكـار والعواطـف ، واعادة صياغتها وتشكيلها من جديد ، بحيث تصبح مهيأة تماما لاستقبال وتبني الصيغ الفكرية وتطبيق وتنفيذ المخططات التي تحقق أهداف القوى المعادية للجماهير ، في هدوء وبدون أية مصاعب .

ولا حاجة للقول بأن القوى المعادية للجماهير ، استعمارا كانت أم رجعية ، لا تضع سلاحها ولا تسلم بسهولة ولطالما علمنا التاريخ ، أن هذه القوى ، عندما تفقد سلاحهـا العسكري ، تلجـأ الى سلاحهـا

الاقتصادي ، وعندما يفقد هذا السلاح جـدواه وفاعليته وتأثيره ، تظل تبحث عن سلاح جديد ، تحقق به أغراضها ، المهم أن تظل المعركة قائمة لأنها في النهاية معركة تتحدد فيها الأهداف التي يسعى اليها اعداء هذه الأمة .

والتاريخ لا يعلمنا الدروس وحدنا ، ان الأعداء يستفيدون من دروسه أيضاً ، ويغيرون برامجهم طبقا لأحداثه ، ولقد تعلمت القوى المعادية للأمة العربية ، أن السلاح العسكري قد لا يكون دائماً وفي كل الـظروف ، الوسيلة الأقـدر على قهـر الشعـوب واستعبادها ، لأن هذه الأمة استطاعت أن تصمد أمام الجوع وأمام المجازر الوحشية وان تنتصر بالرغم من كل بشاعات الاستعمار واحقاده .

وهكذا ادركت القوى المعادية للأمة العربية ، انه إذا كان عليها أن تواصل معركتها ضد الأمة العربية ،

فلا بد أن يكون الميدان الجديد ، هو ميدان الفكر والثقافة .

لقد تنبهت القوى المعادية للأمة العربية ، إلى أهمية مثل هذا التوجه . فمنذ عدة أعوام عقد في « واشنطن » اجتماع ضم عدداً من المسؤولين الأمريكيين ، بينهم زعماء سياسيون وقادة عسكريون ، وخبراء في شؤون الدعاية والأعلام ، اتفقوا جميعاً على مخطط محدد للحرب الفكرية والنفسية التي ينبغي أن تحظى بجهد واهتمام كبير من المسؤولين . . الأمريكيين ، وقد تحدد برنامج هذا المخطط في الاستخدام المنظم للدعاية ووسائل الأعلام ، ووسائل الثقافة للتأثير على الرأي العام وعلى العواطف والاتجاهات والسلوك في البلدان الأجنبية ، سواء أكانت سافرة العداء لأمريكا ، أم غير سافرة العداء لها . وذلك كله بهدف تجنيد عقول الأجانب المعادين لأمريكا أو الذين يحتمل أن يعادوها ، لخدمة أهداف الاستراتيجية الأمريكية .

واستطاعت الحركة الصهيونية أن تستقطب الدكتور طه حسين الذي كان يلقب بعميد الأدب العربي ، والذي تتلمذ عليه كثير من الطلبة اليهود امثال « اسرائيل ولفنسون» الذي أعد رسالة دكتوراه أشرف عليها الدكتور طه حسين ، وقد ركزت الرسالة على اظهار فضل اليهود على العرب ، كما قام « طه حسين » بزيارة مدارس الطائفة الاسرائيلية في الاسكندرية عام 1944 وكان على رأس مستقبليه الحاخام الأكبر « فنتورا » وألقى (طه حسين) محاضرة أبرز فيها علاقة اليهود الايجابية بالأدب العربي وقد استثمرت الصحف الصهيونية هذه المحاضرة وأبرزتها في صفحاتها الأولى . وجاءت الخطوة الكبيرة باسناد رئاسة تحرير مجلة (الكاتب المصري) إلى طه حسين ، هذه المجلة صدرت في أكتوبر 1945 بتمويل صهيوني من أسرة « هراري » وأخذت الطابع الثقافي وقد لعبت هذه المجلة دوراً خطيراً في الدعاية غير المباشرة للحركة

الصهيونية . وقد كان يكتب في المجلة ذاتها ، نفس الكتاب الذين جندوا انفسهم ليكونوا أبواقاً لسياسة « السادات » المهزوم وكان من أبرز كتاب هذه المجلة الصهيونية « توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزي » وقد كان ايمانهم ودفاعهم عن الفرعونية دافعاً لهم لتبني كل سياسة معادية للعرب والعروبة أما الكاتب والنائب البرلماني « عباس محمود العقاد » فقد نشر في يوليو عام 1939 مقالاً في جريدة « الدستور » بعنوان « جاسوسية مكشوفة » يتهم فيها بالخيانة والجاسوسية كل المدافعين عن قضية فلسطين . .

بعد قيام ثورة الثالث والعشرين من يوليو 1952 وما اتخذته من اجراءات وقرارات في كافة المجالات ، حاسمة الصراع بين قوى الصهيونية والقوى الوطنية العربية داخل مصر ، لصالح القومية العربية والارادة العربية وبسبب اجراءات التمصير والتأميم بدأ اليهود ينسحبون من الميدان الاقتصادي فصفوا املاكهم

وأعمالهم وهاجروا . وأكدت ثورة الثالث والعشرين من يوليو بقيادة الزعيم الراحل « جمال عبد الناصر » وجه مصر العربي الوحدوي . .

وتضافرت جهود كل أجهزة الدولة الأمريكية الرسمية وغير الرسمية لتنفيذ هذا المخطط ، من وكالة الاستخبارات الأمريكية ومكتب الأمن الفدرالي الى مؤسسة (فورد) وغيرها من المؤسسات الاحتكارية الكبرى صاحبة المصلحة الحقيقية في هذه الحرب ، لتقوم بانشاء المؤسسات والاتحادات والمنظمات التي تظل بمثابة الواجهات الشكلية التي تختفي وراءها الأهداف الحقيقية التي تسعى اليها تلك الأجهزة الرسمية وغير الرسمية .

ومنذ أعوام ليست بعيدة ، تنبهت بعض الأقطار العربية الى خطورة هذه السياسة الأمريكية الصهيونية ، أو هذه الحرب غير المعلنة على فكرنا وثقافتنا وشخصيتنا القومية واتخذت من القرارات ما

وضع قيدا على نشاط المؤسسات والأجهزة التي تقوم على تنفيذها. لكن هذا لم يتعد مع الأسف وضع القيود على النشاط ، دون اقتلاع واكتساح هذه المؤسسات بصورة نهائية وحاسمة وكان في مقدمة هذه المؤسسات ، مؤسسات النشر التابعة أو الممولة من أمريكا ومن رأس المال الصهيوني ، مثل مؤسسة « فرانكلين » التي قامت بنشاط واسع لنشر الفكر المريض ، واعلان الحرب على الثقافة العربية ، والفكر العربي القومي الوحدوي . وبعد حرب يونيه 1967 ، قاد الزعيم الراحل (جمال عبد الناصر) معركة التصدي للنشاط المريب الذي كانت تقوم به « الجامعة الأمريكية » ومكتب الاستعلامات الأمريكي في مصر العربية .

ومع ذلك ظلت هناك أعمال فكرية وثقافية تتجه الى اشاعة الترهل الفكري والاسترخاء الثقافي والتعايش المستحيل بين الحقيقة والزيف ، بين الحق والباطل .

ولو عدنـا إلى الأعمال الأدبيـة التي انتشرت كالسرطان المدمر في تلك المرحلة ، مرحلة حرب (67) وفي المرحلة التي أعقبت غياب الزعيم الراحل ، جمال عبد الناصر ، لأدركنـا بوضوح ، أي تخطيط جهنمي وضع لتخريب المثقف العربي وهدم أسس ومنطلقات الثقافة العربية القومية الوحدوية ، وفوق ذلك كله وأهم منه ، لتصفية روح المقاومة في أعماق الجماهير العربية والهائها عن قضاياها الجوهرية والأساسية بكل غث وتافه من الأعمال الأدبية .

ولم يكن هذا المخطط مرسوما في التو واللحظة ، لقد كان ثمرة جهود صهيونية وأمريكية قديمة ، وقد أفرخت هذه الجهود ما يمكن أن نسميه بثقافة الردة التي يتبنى مفاهيمها اليوم كتاب ربتهم الصهيونية على مهل من أمثال حسين فوزي ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وأحمد لطفي السيد وغيرهم من رموز الهزيمة والردة في الأدب ومن المـروجـين للفـرعـونيـة والانعـزاليـة والاستسلام .

يحدثنا الدكتور محمد محمد حسين في كتابه « الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر » عن « أن الثري الأمريكي الصهيوني » « روكفلر » قد أعلن عام 1926 عن تبرعه بعشرة ملايين دولار أمريكي لانشاء متحف للآثار الفرعونية في مصر ، يلحق به معهد لتخريج المتخصصين في هذا الفن واشترط لمنح هذه الهبة أن يوضع المتحف والمعهد تحت اشراف لجنة مكونة من ثمانية أعضاء ليس فيها إلا عضوان مصريان ، على أن تظل اللجنة هي المسؤولة عن ادارة المتحف والمعهد لمدة ثلاثين سنة ، وقد كان واضحاً من شروط صاحب الملايين الصهيوني ، أنه يهدف الى خلق جيل من المتعصبين للفرعونية ثقافيا وسياسيا ، ومصلحة الصهيونية في ذلك واضحة ، لأنها إذا تمكنت من سلخ دولة عربية عن عروبتها تجنبت كل معارضة لاستقرارها في فلسطين.

ولقد كانت مجلة السياسة الأسبوعية ، من أهم

المجلات وأخطرها على الواقع العربي ، حين تبنت تلك الأفكار الاستعمارية صراحة ودعت للاقليمية وعملت من أجلها قصدا ودون رادع ، وذلك في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ولم تدر أنها كانت تتخبط في المغالطات وتسعى الى تهديم ذاتها ووجودها بمحاولتها تهديم بنية المجتمع العربي الواحد ، وتشطيرها الى بنى متعددة ومختلفة الاتجاهات والمواقف وعلى صفحات هذه المجلة .

(1) نشر بعض الأدباء بياناً بعنوان « دعوة إلى خلق الأدب القومي » يدعون فيه الى خلق أدب محلي يتميز بالطابع المصري ، وقد بسط (محمد زكي عبد القادر) أحد أعضاء المجموعة أهداف هذه الدعوة في عدد تال من المجلة ، 12نوفمبر 1930 قال فيه : « الأدب المصري الذي نعنيه انما هو أدب محلي يصور الحياة المصرية والقومية المصرية وحدهما » أما « عبد الله عنان » فقد كتب في ملحق « السياسة » سنة 1932

يوضح القومية المصرية : « من الخطأ البين أن تنظم مصر في سلك البلاد العربية ، إذا تعلق الأمر بالناحية القومية ، فالقومية المصرية قومية أصيلة ، وقد وجدت القومية المصرية منذ أقدم العصور ولم تفقد الأمة خواص الوحدة والتجانس منذ أيام الفراعنة ؟!! » ويقول بعد ذلك : « فهذه القومية المصرية هي التي تستظل مصر بلوائها اليوم ، وهذه القومية المصرية هي في الواقع دعامة شخصيتنا القومية ، فلسنا نفهم كيف ينكرها علينا بعض اخواننا العرب » .

وتحدثنا الدكتورة عواطف عبد الرحمن عن هؤلاء في كتابها « الصحافة الصهيونية في مصر من 1897 حتى 1954 » الذي صدر أخيراً عن دار الثقافة الجديدة .

تحدثنا عن هذه الفترة التي استطاعت خلالها الصهيونية أن تمد أخطبوطها وتمهد لمؤامرتها ، وتتبنى بعض الأقلام وتربيها على مهل .

تقول الدكتورة عواطف عبد الرحمن :

« شهد القرن التاسع عشر ازدهاراً وتطوراً لليهود في مصر تمثل في قدوم اعداد كبيرة من يهود أوروبا ، حيث وجدوا مع سائر الأقليات والجاليات الأجنبية فرصا كثيرة للعمل في كافة الميادين وساعدهم ذلك على التوسع في بناء مدارس ومستشفيات ومعابد ومؤسسات خيرية لهم ، واستمرت أسرة « محمد علي » في انتهاج سياسة فتح الأبواب أمام الأجانب التي ازدادت مع قدوم الاحتلال البريطاني عام 1882 .

وقد استطاعت بضع عائلات يهودية رأسمالية أن تتحكم فترة طويلة في توجيه الاقتصاد المصري وتمويله فساهم الرأسماليون اليهود في امتلاك وادارة وتوجيه 95 بالمائة من الشركات المصرية ، وشكل اليهود 98 بالمائة من العاملين في سوق الأوراق المالية واحتكروا معظم صناعة السياحة والفنادق والملاهي والذهب . .

ولم يتوقف نفوذ اليهود عند الاقتصاد ، بل حاول لعب دور مؤثر في الحياة السياسية والثقافية ، ففي العام 1896 ، وفد على مصر « جوزيف » « ماركو باروخ » حيث شرع على الفور في تأسيس أول جمعية صهيونية في القاهرة اطلق عليها اسم جمعية « بركوخيا » الصهيونية وتولى رئاستها « جاك مارملين » ونشطت هذه الجمعية في الدعاية الصهيونية وسعت الى جعل مصر مركز اشعاع لها بالنسبة لليهود الشرقيين وكانت تقوم بدعوة الزوار الصهاينة لالقاء المحاضرات وجمع الأموال ، ونجحت جمعية « بركوخيا » في انشاء عدة فروع لها في بعض المدن الهامة مثل الاسكندرية وبور سعيد وطنطا والمنصورة ، وكانت هذه الفروع تعمل في استقلال عن المركز الرئيسي . .

وفي عام 1904 وصل « هرتزل » شخصياً الى مصر لبحث مشروع الاستيطان الصهيوني مع السلطات المصرية ، وقد أعقب هذه الزيارة تأسيس

عدد من يهود الاسكندرية عام 1908 جمعية (بني صهيون) ثم تأسست في العام التالي جمعية أخرى ضمت بعض اليهود القادمين من « روسيا » وعرفت باسم « زئيرزيون » واندمجت الجمعيتان في جمعية واحدة بدأت تنظم المحاضرات والاحتفالات التي تدعو لتحقيق أهداف المنظمة الصهيونية العالمية ، وارتفع عدد اعضاء هذه الجمعية بسبب تدفق آلاف اليهود القادمين من فلسطين نفسها ومن سوريا بعد صدور قرار الوالي العثماني بتحريم النشاط الصهيوني في يناير 1915 ، فأحسنت الحكومة المصرية وفادتهم وساعدتهم وكانت النتيجة أن تكونت في معسكر اليهود بالاسكندرية نواة الفرقة اليهودية « راكبو البغال » التي خدمت قوات الحلفاء . .

بعد صدور « وعد بلفور » عام 1917 أصبحت الجمعية الصهيونية تتلقى التعليمات من المنظمة الصهيونية مباشرة وشاركت في تسهيل عمليات الهجرة

اليهودية الى فلسطين وتكونت الى جانب هذه الجمعية لجنة عرفت باسم (لجنة مساندة اسرائيل) كان اختصاصها كل ماله علاقة بقيام الكيان الصهيوني . وقد أسهم في تشغيل هذه اللجنة كبار الرأسماليين اليهود في الاسكندرية .

واتسع النشاط الصهيوني في مصر بعد الحرب العالمية الأولى فتشكلت منظمات الشبيبة الصهيونية ورابطة نوادي « المكابى » وفي عام 1918 قام (ليون كاسترو) بتأسيس أول فرع للمنظمة الصهيونية في مصر وأصدر في نفس العام « المجلة الصهيونية » بالفرنسية ، وقد استمرت المجلة خمسة أعوام ، واعتمدت عليها المنظمة الصهيونية في تحقيق أغراضها . .

أما « ليون كاسترو » نفسه فهو محام هاجر من تركيا الى مصر بعد الحرب العالمية الأولى ، ورغم هذا الوضع ، ورغم مجلاته ومؤتمراته ومنظماته الصهيونية استطاع أن

يكون صديقاً (لسعد زغلول) وأصبح عضوا في حزب الوفد بل ورافق سعد زغلول في مفاوضاته الى لندن . ثم ما لبث هذا الصهيوني أن أصبح متحدثا رسميا باسم « حزب الوفد » في أوروبا . وبعد عودته أصدر صحيفة وفدية بالفرنسية . وهكذا لم يتوقف هذا الصهيوني عن خدمة الهدف الذي زرع من أجله ، ففي عام 1943 قرر اعادة تشكيل فرع المنظمة الصهيونية في مصر من جديد تحت اسم « الاتحاد الصهيوني » وظلت هذه الهيئة تمارس نشاطها حتى اعلان قيام الكيان الصهيوني عام 1948 وإذا كان حزب الوفد قد أتاح لمثل هذا الصهيوني فرصة التغلغل حتى أصبح ناطقا رسميا باسم الحزب ، فقد أتاح لصهاينة آخرين أن يصبحوا وزراء مثل « يوسف قطاوي » الذي كان وزيرا للمالية في حكومة سعد زغلول عام 1924 ثم وزيرا للمواصلات في حكومة « أحمد زيور باشا » إذا كان هذا هو موقف حزب الوفد فان حزب الأحرار الدستوريين الذي كان يؤمن بالفرعونية المنعزلة

عن العرب ، هذا الحزب وقفت حكومته ـ حكومة « محمد محمود باشا » ضد ثورة شعب فلسطين في عام 1929 وكتبت صحيفة السياسة ، لسان حال الحزب ، تهدد الوطنيين الفلسطينيين في مصر لاتهامهم باثارة القلاقل .

كذلك عندما تولى « اسماعيل صدقي » الوزارة عام 1930 أغلق جريدة « الشورى » الفلسطينية التي كان يرأس تحريرها « محمد علي الظاهر » هذا في الوقت الذي شمل برعايته صحيفة « اسرائيل » التي انشأها « البرث موصيري » عام 1920 وكانت لسان حال الحركة الصهيونية في مصر .

وعندما كان « اسماعيل صدقي » نفسه وزيراً للداخلية عام 1925 اعتقل الوطنيين الفلسطينيين الذين هتفوا ضد وعد (بلفور) المشؤوم اثناء مروره من القاهرة في طريقه الى فلسطين لافتتاح الجامعة العبرية .

وقائع أخرى تتوالى على ذكر افتتاح ـ الجامعة العبرية ـ فقد أوفدت حكومة « زيور باشا » الكاتب « أحمد لطفي السيد » مندوباً عن الجامعة المصرية لحضور احتفالات افتتاح الجامعة العبرية .

إلا أنه يبدو أن التاريخ يعيد نفسه[4] فبعد توقيع معاهدة الذل والاستسلام والخيانة ، بين نظام السادات المهزوم ، والكيان الصهيوني الغاصب ، عادت نفس الوجوه المؤيدة للانعزالية وللصهيونية ؛ ممن لا زالوا على قيد الحياة امثال الدكتور حسين فوزي وتوفيق الحكيم ، كما عادت بعض المصالح الرأسمالية المصرية لتعيد سرد نفس حكاية الخيانة والذل والاستسلام بعد أن افرزت نموذجا ممسوخاً مهزوماً تمثل في السادات العميل الذي خلقته وزرعته المخابرات الصهيونية الأمريكية في الوطن العربي .

لكننا بعد ذلك كله يمكن أن نتساءل :

هل نجح المخطط الأمريكي الصهيوني ؟

إن الإجابة واضحة ، فبالرغم من وجود « السادات » المهزوم كنتاج لهذا المخطط وكصنيعة للمخابرات الصهيونية الأمريكية ، فان الشعب العربي لم يهزم بل ان استسلام السادات وهزيمته وخيانته ، أدت الى اصرار الشعب العربي في مصر على انتمائه العربي وارتباطه بأمته العربية ، لأن التاريخ يقول لنا بأن محاولات كثيرة بذلت من أجل اذابة الأمة العربية وعرقلة زحفها العظيم ، ولقد تكسرت هذه المحاولات وتحطمت وبقيت الأمة العربية صامدة في وجه الأعداء والعملاء والخونة ، سائرة نحو تحقيق وحدتها وإداء رسالتها وهو ما دفع أحد أبناء هذه الأمة ، الثائر (معمر القذافي) إلى أن يقول في البرقية التي وجهها لكارتر وريغان : ـ

« أعتقد أنني بهذا الخطاب ، قد أسديت لكم نصيحة

هامة ، بينت لكم الأمور على حقيقتها من وجهة نظر الأمة العربية ، وقواها الثورية التي تقود الآن معركة التحرير والتقدم والكرامة والوحدة ، التي ستنتصر في النهاية بكل تأكيد ، والذي يتجاهلها سيهزم » * .

كوابيس الأدب الانعزالي

لا بد لي في البداية من الإشارة الى حقيقة لا شك أن الكثيرين ممن يعرفون طبيعة الكتابة الصحفية يدركونها على نحو واضح . وهذه الحقيقة تنحصر في كون المقال الصحفي يخضع في كثير من الأحيان لاعتبارات متعددة ، أهمها السرعة التي تجعل منه مجرد نبش للقضايا دونما تعمق أو تتبع دقيق لجذور وتفاصيل القضية المثارة ، ولا بد أن الذين تابعوا مجموعة المقالات التي نشرت حول « رموز الهزيمة في الأدب العربي » ، أدركوا أن هذه المقالات ينقصها الكثير من التحديد العلمي والتأصيل الموضوعي ، والحصر الدقيق لهذه الظاهرة ، التي لم تكن جديدة على الإطلاق ، أعني ظاهرة النماذج الأدبية الانهزامية والإنعزالية في الأدب العربي ، غير أن ادراكنا

لهذا القصور لا يمنعنا من الاحساس بأهمية كشف هذه الـظاهرة، الجريمة التي ظلت تعيش بيننا ، وتنمو على مهل وروية ، وتحاول أن تغرس جذورها العفنة في أعماقنا ، لتنخر وجدان المواطن العربي ، ساعية في استماتة ، لوأد كل تطلعاته وطموحاته في أن يكون حراً على أرضه ، ممتلكاً لمصيره ، مواطنا سيداً في دولة الجماهير العربية من المحيط الى الخليج . .

ولقد أخذت جهود الاستعمار واذنابه من فلول الرجعية العربية تكتل جهودها في هذا السبيل ، منذ بداية الوعي القومي وادراك الاستعمار ومرتزقته لخطورة يقظة الجماهير العربية ، وما يمكن أن تمثله هذه اليقظة من تهديد لمصالحه الامبريالية في الوطن العربي .

فهل نستطيع أن نتوقف الآن لكي نقرأ التاريخ ، ونتعلم منه ، كيف صمدت هذه الأمة في وجه كل المخططات التي كانت تهدف إلى ابادتها ومحوها ، وكيف تكالبت قوى الشر من أجل زعزعة هذا الصمود ،

واستخدام كل ما يمكن استخدامه في هذا السبيل ، ابتداء بالغزو المسلح ، الـذي فشل في تحقيق اهدافه الاستيطانية فتم استبداله بغزو آخر أكثر خطورة ، وحرب أشد وطأة هي الحرب الثقافية أو الغـزو الفكري . ولعل مكمن الخطورة في هذه الحرب ، انها ليست حربا مكشوفة واضحة بقدر ما هي عملية غزو منظم وخفي لا يستهدف الاستيلاء على التراب فقط ، ولكنه أيضاً يرمي إلى هدف أبعد من ذلك وأكثر خطورة ، ويتمثل ذلك الهدف في الإستيلاء على الانسان نفسه ، والاستحواذ عليه بغزو عقله وفكره وعواطفه وانتماءاته القومية ، واعادة صياغتها وتشكيلها من جديد بحيث تصبح تربة صالحة لزرع وتقبل وتبني كافة أهداف الرجعية والاستعمار وخلق المناخ الملائم لها كي تعيش وتضرب بجذورها العفنة في الأعماق .

ولعلنا في غير حاجة الى الاشارة الى ان القوى المعادية للجماهير ، كيفما كان لونها وشكلها ، لا تضع سلاحها

ولا تسلم بسهولة . وعندما نقرأ التاريخ قراءة واعية وعميقة ، فان اول درس نتعلمه منه ، هو ان قوى الإستعمار و الرجعية ، عندما يفشل غزوها العسكري ، تلجأ الى سلاحها الاقتصادي ، وعندما يعجز هذا السلاح الأخير عن التأثير تظل تبحث دوماً عن سلاح جديد . . تخوض به معركتها و تنفث من خلاله سمومها .

والتاريخ يعلمنا دائماً ان الغزو العسكري ، قد لا يكون دائماً وفي كل الظروف ، الوسيلة الأقدر على استعباد الشعوب ، و هو يعلمنا أيضاً أن السلاح الإقتصادي قد لا يكون مجدياً في كثير من الأحيان ، لأن الجماهير لا تفرط في حريتها عندما تتعرض لأخطار الجوع . . فالغزو المسلح و الحصار الإقتصادي لم يمكنا إيطاليا من تحقيق هدفها الإستيطاني على التراب العربي في ليبيا ، والغزو المسلح و الحصار الإقتصادي ، لم يمكنا فرنسا من تحقيق هدفها الإستيطاني على التراب العربي في

الجزائر ، وهكذا فقد كان على قوى الاستعمار أن تواصل معركتها بأسلوب جديد يستهدف فكر المواطن العربي وثقافته وانتماءاته القومية ، وهو ما يجعلنا نتعرف على أشكال متعددة من الثقافة الإستعمارية التي أخذ الإستعمار يستنبتها على مهل في تربة الثقافة العربية ، حيث ظهرت الدعوة الى الفرعونية ، والتاريخ الفرعوني ، وحيث ظهرت الدعوة الى الشخصية الليبية ، التي حاولت وما تزال ، أبعاد ليبيا عن عروبتها وانتمائها القومي ، وربطها بتيارات غريبة عنها ، والتي تتمثل فيما يسمونه بحضارة « قورينا » الليبية وأمجاد « سبتموس سفيروس » الإمبراطور الليبي على حد تعبيرهم ، وأدب « أبوليوس » الذي بدأ يغزونا بكتبه هذه الأيام . . فقد صدر له كتابان عن المنشأة العامة للنشر والتوزيع . . وفي سلسلة « كتاب الشعب » ؟! وهذان الكتابان هما : « الأزاهير » و « دفاع صبراتة » أما كتابه الثالث فهو « الجحش الذهبي » وقد علمت ،

وأرجو ألا يكون ذلك صحيحا ، انه تحت الطبع .

فمن هو « أبوليوس » هذا ، الذي نحتفي به كل هذا الاحتفاء ؟ نحن لسنا ضد ترجمة الفكر الانساني الذي يمكن أن يفيدنا دون أن يضللنا ، ويزرع في عقول قرائنا أفكاراً مسمومة ، فهل يمكن أن نعتبر « أبوليوس » هذا مفكراً إنسانياً يمكن أن يفيدنا دون أن يضللنا ؟

أغلب الظن أنه ليس كذلك ولو كان كذلك لسبقنا اليه الكثيرون ! إذن فما هو المبرر الحقيقي لنشر كتبه والإحتفاء به كل هذا الاحتفاء الملفت للنظر والانتباه معا ؟! نبحث طويلا وكثيرا عن إجابات لهذه الأسئلة ، دون جدوى ، غير أن مترجم كتاب « الأزاهير » يكفينا مؤونة التعب ، فيقول لنا في مقدمة الكتاب : « اننا نحتفي به ، لأنه « ليبـي » (فقد كان « لوكيوس أبوليوس المدوري » ليبي الأرومة ، يتصل نسبه كما يقول في « دفاعه[1] بقبيلة « الغايتولي » الليبية) .

وهذا الرجل الليبي الإفريقي الذي كان يعيش تحت ظل الحكم الروماني لا يجد في أغلب أحاديثه إلا فلاسفة اليونان وشعراءهم وفنانيهم ونحاتيهم ورساميهم بل وقادتهم ، ليرصع حديثه بذكرهم وقص الروايات عنهم والإستشهاد بأخبارهم ، وهو واجد قوما يصغون اليه ويقدرون ما يقول » .

هذا ما يقوله لنا عنه مترجم الكتاب ، في مجال تبريره لنشر كتاباته والاهتمام بها .

فما الذي يمكن أن تقوله لنا هذه الكتابات والترجمات وما الذي تحتوي عليه من مضامين ؟

انني أفهم من كل هذا شيئاً واحداً وأرجو ألا أكون مخطئاً أو ظالماً أو بعيداً عن الصواب ، أفهم منها أنها تقول لنا ، التفتوا الى أصولكم الحقيقية فأنتم غير عرب ، انكم قوم ليبيون ، لكم تراثكم وحضارتكم ، نقبوا عن هذا التراث وهذه الحضارة وانشروا تراث « لوكيوس

أبوليوس » ومجدوا الامبراطور « سيفروس » وجددوا أمجاد « قورينا » تلك هي جذوركم ويجب ألا تظلوا غافلين عنها !

ولسنا نريد بعد ذلك كله أن نستطرد في تتبع أمثال هذه الكتابات التي حاولت أن تكرس ما تسميه الشخصية الليبية وان تتجه هذا الاتجاه الإنعزالي ، فقد صدرت في هذا المجال كتب كثيرة ، ولا زالت تصدر ، وقد بلغت الدعوة الى الشخصية الليبية وجهاً في أواخر الستينات ، وبعد حرب (1967 م) بالذات « لاحظوا التوقيت » وكان « عبد الحميد البكوش » قد تبنى هذه الدعوة وسخر كافة أجهزة الإعلام في ذلك الوقت لخدمتها والترويج لها ، وظلت واجهات المكتبات لفترة طويلة تحتلها عناوين كتب تتجه هذا الإتجاه ، وتحاول دعمه ، وصدرت بعض النصوص الإغريقية باعتبارها نصوصاً من التراث الليبي ، وبدأت الصحف في ذلك الوقت تصعد حملتها ضد اتجاه مصر العربي الوحدوي الذي كان يقوده الزعيم

الراحل « جمال عبد الناصر » واحتفت أجهزة الاعلام في ذلك الوقت بمسرحية عنوانها « حسناء قورينا » واتخذ مفهوم الوطن مصطلحاً إنعزالياً يحاول إلغاء استخدام مصطلح الوطن العربي ، باعتبار أن هذا الوطن ليس وطناً واحداً بقدر ما هو مجموعة أوطان . فالدعوات الإنعزالية كانت حريصة على أن تمزق وحدة الفكر العربي ، بأن تؤجج دعوات إقليمية ضيقة وتبرز طابع حضارة قديمة لاقليم من الأقاليم وتحاول أن تجعل منها قوة فكرية حية تغطي على الثقافة المشتركة ذات الطابع الأصيل والتي تربط الأمة العربية كلها من المحيط إلى الخليج .

وقد قرأت كتاب لكاتب اسمه « أحمد ضيف » وعنوان الكتاب هو « بلاغة العرب » وقد أشار هذا الكاتب في مقدمة كتابه الى أن « الأدب العربي » ليس إلا « آداب العرب » وهي ليست آداب أمة واحدة ، وليست لها صفة واحدة ، بل هي آداب أمم مختلفة المذاهب والأجناس

والبيئات ، ومن شأن اختلاف الأمم تعدد آدابها .

وقد حاول تنمية هذه النظرية في اقليمية الأدب . . « الشيخ أمين الخولي » في كتابه المعنون « في الأدب المصري » ومحاضرات مختلفة عن « مصر وتاريخ البلاغة » وأذاع نظرية التقسيم المكاني للأدب بدلاً عن التقسيم الزماني ، واستهدف دراسة الأدب العربي إقليمياً ، على أساس ان لكل اقليم طابعه الخاص .

فهل يمكن أن نضيف شيئاً بعد ذلك كله ؟ . . وهل نحن في حاجة الى القول بأن ذلك كله يتم وفق مخطط مرسوم للغزو الثقافي ؟ اننا ندعو الى التوقف طويلاً أمام مثل هذه الظواهر لأن عدم الإهتمام بها يؤدي إلى نتائج وخيمة ما احرانا أن ننتبه لها ونتجنب مخاطرها .

الأيَّامُ الأخِيرَةُ
لِملُوكِ دَوْلَةِ الأدَبْ[٧]

مثل كل الملوك والأمراء ، يلبسون التيجان ، ويقتنون الحريم ويصطافون في سويسرا ، وتأتيهم أطباق طعامهم المفضلة من مطعم . . مكسيم . . في باريس ، وتحيط بهم مجموعة من المنافقين وماسحي الجوخ ، ولهم سائق خاص ، وسكرتيرة حسناء ، وهواتف سرية ، وخدم وحشم من كل جنسية ، وحسابات جارية بالعملة الصعبة ، والسهلة ، في كل المصارف المتعارف عليها ، بين الملوك والأمراء والسلاطين وكل فصائل ذوي التيجان والعروش وأنظمة الحكم التي ترد كثيراً في الأخبار ، وكل انجازاتها ، قنابل مسيلة للدموع ، وهراوات مسيلة للدماء وأقبية فرعية مسيلة للأرواح ؟!

ومثل كل الملوك والأمراء يستحوذون على كل شيء

وتتملكهم رغبة الهيمنة والتسلط ، ويؤذيهم الاختلاط بالناس ويتعبهم المشي على الأرجل مثل بقية خلق الله ، أجسامهم لا تعرق ، ووجوههم لا تندي ، وعيونهم لا ترى أبعد من حائط القصر ، وبصيرتهم لا تنفتح إلا على جسد امرأة جميلة ، وآذانهم لا تسمع سوى كلمات النفاق والمديح والتمسح بالأعتاب ، لذلك تراهم يسكنون بيوتاً ، أو لنقل قصوراً بعيدة عن الزحام ، كل قصر منها يناسب فصلا من فصول السنة ، وتتلاءم الحياة فيه مع طبيعة أجسادهم الرخوة اللدنة ، الطرية ، الناعمة .

●*●

ومثل كل الملوك والأمراء يرون من العار أن يتحدث الواحد منهم باللغة العربية ، داخل وسطهم الخاص ، وتجمعاتهم الناعمة ، لأن اللغة العربية لغة متخلفة ومتوحشة ، ليس معترف بها في صالات القمار في ـ موناكو ـ وتنفر من سماعها حسناوات ـ لوس انجلوس ـ وتجلب الشؤم في صالات ـ لاس فيجاس ـ

ومن أجل ذلك فهم لا يستخدمونها الا في رواياتهم وقصائدهم التي تكتب للتسويق التجاري والاستهلاك المحلي ، مثل أية بضاعة رديئة ؟

ومثل كل الملوك والأمراء ليس لهم موقف واضح أو رأي محدد أو نظرة عامة للأمور ، ألوانهم متعددة وأقنعتهم كثيرة ، ووسائل ركوبهم للموجة ، في غاية الدهاء والمكر واستعدادهم للافتاء في كل مسألة ، وتبرير كل قضية ، بما يناسب المقام ويتمشى مع الظرف ، ويساير الزمن ،استعداداً يفوق كل تصور ، لأنهم يعرفون أن كل حاكم يحتاج اليهم ، وكل أمير لا بد أن يبادر باستخدامهم وكل ملك لا بد أن يأنس اليهم ، ويصر على ألا يخلو بلاطه منهم ، لأنهم دائماً وفي كل وقت ، زينة المجالس الملكية ، مثل أي جارية أو غلام أو كلب من كلاب القصور المدللة .

●*●

وككل الملوك والأمراء تعقد لهم مؤتمرات صحفية وتنشد في حضرتهم قصائد المديح ، ويقصدهم طالبو الحاجات ومتسولو المناصب ويحتمي بهم نفر من صغار مهنة الأدب ، وتنشر صورهم وأخبارهم الى جانب صور وأخبار ـ جاكلين كنيدي ـ و ـ محمد علي كلاي ـ و ـ أحمد عدوية ـ وطيبة الساقين نجوى فؤاد ، وهم ككل النجوم ، لهم عشيقة في كل مدينة ومعجبة في كل ناد ، وزوجة لزوم حفلات ـ السواريه وضجيج يسمع عن بعد في كل مجلس طرب أو نكد .

● * ●

ومثل كل الأمراء والملوك ، لهم مؤتمرات قمة ـ لكي لا نقول مؤتمرات حضيض ـ يلتقون فيها بين الفينة والأخرى ، وكلما استدعى الأمر تغيير الجو ، وتغيير المزاج ، وهم يجتمعون في هذه الملتقيات الموسمية للتدارس والتشاور وتبادل الرأي ، حول شؤون دولة

الأدب وشجونها ، والوجوه في هذه المؤتمرات لا تتغير ولا تتبدل ولا تهرم ولا تشيخ ولا تكف عن النضال في سبيل مقاعد الدرجة الأولى في الطائرات ، وجلسات الاسترخاء الهانئة في فنادق العالم الكبيرة . .

● * ●

تراهم عندما تراهم ، يتكلمون عن كل شيء سوى الأدب وعن كل شأن سوى الوطن ، وعن كل أمر سوى المسؤولية ، وجوه صفراء وحمراء وزرقاء ، وكل ألوان الطيف تتصدر المجلس ، وتملأ الكراسي ، وتخنق ناقل الصوت ، أجسام سمينة مترهلة كأنها لسلالة غريبة من البشر تكونت قبل خلق العظام والمفاصل ، مجموعة من الرؤوس الصلعاء ، في مقدمة كل صلعة غليون ، وكل غليون بما فيه ينضح وكل صلعة بما فيها تلمع ، وكل كرش بما فيه يجعجع ، وكل مؤتمر تختتم الجلسات فيه قبل أن تبدأ ، لأن الليل أخذ كل شيء ولا بد لمن يسهر أن

يرتاح ، والراحة تستدعي أن يؤجل المؤتمر للعام القادم ولا داعي للإستعجال ، ففي العجلة الندامة ، ورب سهرة خير من ألف مؤتمر .

● * ●

الذين ماتوا منهم ما زالوا يعيشون ، ومن هم على قيد الحياة ما زالوا يكتبون وليس ثمة ما يزعجهم سوى موت واحد منهم لأن هذا الموت يعني أن ـ نسل ـ كتابهم مهدد بالانقراض ، ومن أجل ذلك نراهم يصرون على أن من مات منهم ما زال على قيد الحياة وان على القراء ألا يصدقوا كذبة موته ، فالصحف ما تزال تمتلىء بمقالاته والإذاعة ما زالت تردد اقواله ، وصوره لا تغادر الشاشة الصغيرة والكبيرة على حد سواء وأغانيه ما زالت تنساب عبر حنجرة الدكتورة فايزة أحمد والدكتورة نجاة الصغيرة والدكتور محمد عبد الوهاب وكل الدكاترة الذين تخرجوا من جامعة المهزوم ، الخاصة ، ورقصوا أمام كتيبة الاستبلام والذل والخيانة .

الألقاب في دولتهم بدون حساب ، والرتب بدون مبرر والنياشين بدون حد ، وكل على حسب مكانته في مملكة الأدب ، وامبراطورية الكلمة المخصية المداهنة ، وقف احمد شوقي ذات مرة ، أمام الخديوي وأنشده . . أأخون اسماعيل في ابنائه . . ولقد ولدت بباب اسماعيلا وعندما طلبوا اليه المزيد قال :

شـــاعــر الـعــزيــز ومـــا
بـــالـصـغـير ذا الـــلقـب

واسماعيل الذي كان يقصده شوقي هو الخديوي اسماعيل أما ـ العزيز ـ فهو عزيز مصر ـ فرعون ـ وما يهمنا في هذه الحكاية هو أن شوقي منح منصب أمير في دولة الشعراء ، وفرض علينا منذ ذلك اليوم ألا نسميه باسمه المجرد ، حتى الطلبة الذين يحفظون قصائده لا بد أن يجيبوا في الامتحان اذا سئلوا عن شوقي :

وقال أمير الشعراء أحمد شوقي ، واذا لم يفعلوا كانوا

جهالا وأغبياء ولا يعرفون تاريخ الشعر والأدب ، واستحقوا بذلك الرسوب ، حتى يتعلموا آداب مخاطبة الملوك والأمراء فلا ينادونهم أو يذكرونهم بأسمائهم المجردة وكأنهم من أولئك العامة الذين لم يقفوا أمام باب الخديوي الا في مظاهرة ، ولم يذكروا اسمه الكريم الا باللعنة .

●*●

ومنذ أن أصبح لدولة الشعر أمير ، كان لا بد أن يكون لهذا الأمير ـ أسرة مالكة ـ تملك وتحكم وتتوارث النفوذ والسلطان كما يتوارثه الملوك والأمراء وبقية هذه السلالة من ذوي التيجان والعروش والهيمنة المطلقة .

●*●

وهكذا تعرفنا على الشاعر ـ عزيز اباظة ـ باشا ، الذي لم يترك ملكا صغرت خزينته أو كبرت إلا وشد اليه الرحال ليمدحه ، ويتمسح بمخلاة نقوده ، بعد أن

استعمل كل الشراكسة من سلالة ـ محمد علي باشا ـ مدحا وتملقا وتمسحا بالأعتاب وآخر عهدنا به ، عندما جاءنا ومعه جوقته الموسيقية التي تتكون من محمد عبد الوهاب قبل أن يتدكتر ، ومحرم فؤاد قبل أن يصبح خادماً في قصر أحد أمراء النفط ، ونجاة الصغيرة قبل أن تعتزل الغناء ، جاء ـ عزيز أباظة باشا ـ ليختتم رحلة الملق بقصيدته ـ عهد اليسر ـ التي حاولت أن تصنع من الملك العميل إنساناً ، ومن عهده المظلم ، عهداً لليسر ، ولعل ـ اليسر ـ الوحيد الذي كان يقصده الشاعر ، هو ما دخل جيبه من أموال ، وما استمتع به من حظوة ، وما اقتناه من مقتنيات فاخرة .

ومات ـ عزيز أباظة ـ دون أن يخسر الشعر شيئاً ، فقط خسرت مملكة الأدب أميراً آخر من أمرائها لكن هذه المملكة الغريبة ، قادرة باستمرار على الدفع بأسماء جديدة وكأنها تخشى أن تنقرض دولة النفاق ، ومملكة العهر الفكري والأخلاقي ، وهكذا دفعت لنا بشاعر

اسمه ـ صالح جودت ـ كان أكثر الشعراء تخصصاً في مسائل القصور والحاشية ، وكل ما يتعلق بها من تدابير وأمور . .

● * ●

ووسط هذه السلالة العجيبة من ملوك وأمراء الأدب الفاسدين كان يعيش مجموعة من الباشوات والبكوات والأفندية يتسقطون الفتات ، ويصنعون من الصحافة ، مملكة أخرى أشد قذارة وسقوطا ، من فكري أباظة باشا الى أنيس منصور بك ، الى إحسان عبد القدوس وموسى صبري وإبراهيم الورداني ، وغيرهم من الشلة المعروفة التي لم ترتبط بأي موقف مشرف ، ولم يكن لها في حياتها سوى المواقف المشبوهة والانحناء المستمر أمام كل حاكم أو ملك .

● * ●

بقيت بعد ذلك اسماء أخرى ، رأت أنه من الخير لها أن

تصنع مملكة باسم مختلف ، وان تظهر للناس بمظهر آخر مزوق ، حتى ينطلي خداعها على الناس ، وهذه المجموعة هي بقايا فلول حزب الوفد التي استطاعت أن تتسلل الى صفوف ثورة 23 يوليو وتدعي أنها تقف الى صفها وتؤمن بأهدافها ، بعد أن تلونت بكل الألوان وجربت كل الملل والنحل ، فهي مع الوفد تارة ، وهي مع الشيوعيين تارة أخرى وهي مستقلة في بعض الأحيان ، لكنها في كل الأحيان كانت تهتف ، وبقيت تهتف وتخفي ما في نفوسها ، حتى ظهر السادات المهزوم ، فكشرت عن أنيابها وظهرت على حقيقتها واستطاعت أن تكون عن جدارة رموزا للهزيمة في الأدب العربي . . وما يكتبه : لويس عوض ومصطفى محمود ، ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وحسين فوزي وعبد الرحمن الشرقاوي وأنيس منصور ما يكتبه هؤلاء وما يمثلونه من عهر وسقوط هو خير دليل على أنهم يعبون من مستنقع واحد هو مستنقع الهزيمة . . وبالرغم من إيماننا

بأن ملوك دولة الأدب يعيشون أيامهم الأخيرة فاننا سنتوقف في اعدادنا القادمة عند هذه الرموز ، لأنها ككل نظام ملكي فاسد ، ينبغي أن تُعرَّى وتكشف لكي لا تستمر في تضليل الجماهير والتدجيل عليها .

نحو منهج جماهيري

في

تدريس الأدب



مُنْطَلَقاتٌ عامَّة

■ يخيل إليَّ أنه من الضروري أن تكون نقطة الانطلاق في هذا الموضوع ، محاولة لتلمس بعض مشاكل العملية التعليمية في الوطن العربي ، لأن هذه المشاكل تشكل أساس ما يمكن تسميته بعجز مناهج التعليم العربية عن تحقيق طموحات الانسان العربي ، وعدم قدرتها على سد احتياجات الوطن العربي من القدرات البشرية التي تحقق له المستوى المطلوب من التقدم والازدهار . .

وبادىء ذي بدء فإنني أعتقد أن أحداً لن يختلف معي في أن السياسة التعليمية في أي مجتمع ، لا يمكن أولا يجب أن تنفصل عن السياسة القومية لهذا المجتمع . وبهذا

المقياس نستطيع أن نؤرخ ، بدايات العملية التعليمية في الوطن العربي ، ونتفهم اتجاهاتها الأولية ومنطلقاتها وما آلت اليه بعد ذلك ، وكيف ظلت عاجزة عن تجاوز مراحلها الأولية ، وغير قادرة على تفهم المتطلبات الجديدة للمجتمع العربي المناضل من أجل دحر كافة انماط الهيمنة الاستعمارية واكتساح كافة أشكال العلاقات الاجتماعية الظالمة التي لم تكن سوى ارثا استعماريا بغيضا ظل ينخر في وجدان الأمة ويعرقل انطلاقتها . .

لقد كان التعليم بالنسبة لأقطار الوطن العربي ، واحدا من الجوانب الهامة التي ظلت تمثل انعكاسات صادقة لحركة الثورة العربية . وهو أيضا لم يكن سوى تعبيراً عن درجة نمو المجتمع العربي وتطور امكانيات مواجهة القوى الاستعمارية المهيمنة عليه . .

وهكذا فإننا يمكن أن نقول بأن التعليم نفسه ، ظل

يمثل في بداياته جانباً أساسياً من معركة الشعب العربي ، الوطنية والقومية والاجتماعية . ولم يكن يحرك هذه المعركة سوى ذلك الهدف المقدس ، وهو أن يظل الانسان العربي ، عربياً ، وهو لن يكون كذلك إلا إذا واجه كل الحملات التي كانت تستهدفه ، وتسعى جاهدة إلى انتزاعه من جذوره وارتباطاته التاريخية والقومية وينبغي هنا أن نلاحظ أن التعليم ظل فترة غير قصيرة تعليما شعبيا ينبع من حاجات الجماهير ويقود معركتها ولم ينحرف عن أهدافه الا عندما تسلمت مسؤولية الاشراف عليه مؤسسات حكومية ، انشأتها الأنظمة التي تسلمت الحكم في أعقاب حصول الأقطار العربية على ما يعرف بالاستقلال ، الذي لم يكن سوى شكل آخر من أشكال الهيمنة الإستعمارية ، بعد فشل كل مشاريع الاستيطان والاستحواذ الكامل على الانسان والأرض ، نتيجة لصمود الجماهير وتصديها لهذه المشاريع والمخططات . .

ففي ليبيا كان التعليم الشعبي رداً على الهجمة الصليبيةالفاشستيةالتي كانت تستهدف بالدرجة الأولى، ارتباط العرب الليبيين بالحرف العربي والانتماء القومي ، وبالرغم من الامكانيات المتواضعة للمدارس القرآنية ، فقد ظلت تسهم في الحفاظ على هذا الانتماء العربي في مواجهة كل مخططات الاستعمار الايطالي وأهدافه الاستيطانية . .

لقد جاء الإستعمار الايطالي فأخمد كل صوت وطني يؤمن بالأمة العربية ، وبقدرتها على تجاوز كافة محنها . .

واستفاد هذا الاستعمار من التجربة الفرنسية في الشمال الافريقي ، فحمل معه الى جانب غزوه الحربي خطة سياسية تقوم على الإحاطة التامة بالأوضاع الاجتماعية والثقافية ، وانشاء المراكز للدراسات الاستعمارية ، لرسم الخطة التي سيسلكها في تعامله مع المواطنين ، وانتهت به الى وضع برنامج محدد يقوم على

العناصر التالية التي تصادفنا في خطط الاستعمار الفرنسي . .

1 ـ القضاء على كل مقومات الانتماء القومي .
2 ـ قطع الصلات بينه وبين ماضيه الحضاري .
3 ـ طمس معالم الشخصية الحضارية العربية .
4 ـ محاربة اللغة العربية والثقافة العربية .

لقد أدرك هذا الاستعمار ، ان صراعه مع الجماهير العربية سيطول ويمتد ، وانه لن ينتهي عند المعارك الحربية ، وانه سيواجه مقاومة ضارية تقوم على الاعتزاز بالمثل والتقاليد التي تحفل بها الحضارة العربية ، وان استمرار الصلة بهذه القيم من شأنه ان يذكي في النفوس شعلة الصمود والمقاومة والنضال المستمر . وكان أول العناصر في هذه الخطة يقوم على عزل المواطن عن كافة أسباب الثقافة والتعليم . .

ولقد أقام الاستعمار الايطالي[5] بليبيا اثنتين وثلاثين

سنة ، خرج بعدها دون أن يخلف أية قاعدة ثقافية يتمثل فيها الاحتضان الصحيح لثقافته بحيث تمثل تيارا معينا في مجرى الحركة الفكرية في البلاد ، لأن المواطن في هذه البقعة من الوطن العربي ، أدرك منذ البداية ، أن عليه أن يخوض معركة الدفاع عن الوطن ، كما أن عليه ان يخوض معركة الدفاع عن الانتماء التاريخي لأمته العربية . .

ولم يكن التعليم في المغرب العربي ليخرج عن هذا النطاق فقد ظل يمثل على مستوى المؤسسات التعليمية الشعبية ، جانبا مشرقاً من نضال الشعب العربي في تونس والمغرب والجزائر ولم تكن الحرب التحريرية التي خاضها الشعب العربي في هذه الأقطار ، إلا دفاعاً عن عروبة الانسان ، وتصديا لدعوات الفرنسة ومحاولات وأد الحرف العربي في أعماق الملايين العربية المناضلة في الجناح الغربي للوطن العربي الكبير . .

أما في مصر ، فمنذ مطالع القرن التاسع عشر ،

برزت الى جانب المعركة الوطنية العامة وفي قلبها ، معركة تعليمية ، صمدت في وجه كافة مخططات عزل مصر عن الحرف العربي والانتماء القومي ، ولقد تتابعت فصول هذه المعركة بعد ذلك واتخذت اشكالا متعددة على كافة المستويات ، واذا كان الاستعمار البريطاني قد شجع التعليم في فترة من الفترات ، بهدف خلق موظفين يساعدونه في الأعمال الادارية ، فان المعركة استمرت في ناحية أخرى ضد هذا الاتجاه التخريبي ، عندما تبنى مجموعة من المثقفين الدعوة الى إيجاد تعليم يهدف الى خلق انسان وطيد الصلة بثقافته العربية وجذوره الحضارية ، وقد حقق هؤلاء كثيراً من النجاحات على مستوى التعليم الابتدائي والثانوي ، وعلى مستوى التعليم الجامعي بل ان انشاء الجامعات كان في جانب منه ردا وطنيا على الاستعمار البريطاني آنذاك . .

ولم تكن مصر وحدها ، كما لم يكن المغرب العربي وحده في هذا الاتجاه ، فلقد كان النضال ضد محاولات

(التتريك) في الشام ، ابان الهيمنة العثمانية عليه ، يمثل في جوهره صمودا ضد تلك المخططات وتمسكا بعروبة الأرض والانسان . .

● * ●

وإذا كانت تلك هي الملامح البارزة لاتجاهات التعليم ومنطلقاته ، خلال فترة اليقظة والتوثب العربي من أجل اكتساح جذور الاستعمار العفنة وتحقيق حرية الانسان العربي على أرضه .إذا كان الأمر كذلك خلال مرحلة اليقظة ، فان الأمر بات مختلفاً عندما تخلص الوطن العربي من النمط الاستعماري المباشر ، وبدأ يجابه أوضاعاً جديدة ، اجتماعية ووطنية ونفسية أيضاً ، ولعل أبرز ملامح هذه الأوضاع هو الارتباك والتعثر ، واتجاه الحكام الى طمس الهدف القومي واستبداله بالنعرات الاقليمية ، حفاظاً على عروشهم ومكاسبهم الشخصية . وكما أثرت هذه الانتكاسات في جميع أوجه

الحياة العربية ، فانها كذلك قد انعكست على التعليم بصورة خاصة بحيث ظلت السياسة التعليمية تتعرض لارتباك وتعثر وتجريبية لا تقوم على أساس علمي ولا تحاول تعميق منطلقاتها وتكييفها بحسب احتياجات المجتمع العربي الذي أخذ يتخلص من الهيمنة الاستعمارية ليواجه اشكالات مراحل البناء والانطلاق . .

وقد أدى هذا التعثر والتجريبية الى تعدد الاجتهادات وسيطرة بعض المفاهيم المتخلفة التي قادت بالتالي الى **الأزمة** في مناهج التعليم العربي . .

وإذا جاز لنا أن نحدد طبيعة هذه الأزمة وان نتعرف على ملامحها وخطوطها العامة ، فاننا يمكن أن نلخص مظاهر هذه الأزمة في النقاط الآتية :

1 ـ ان تطور المناهج التعليمية في الوطن العربي لم يحقق من حيث الكم والكيف التوازي والتناسب المنشود وظلت

هناك فوارق ومسافات شاسعة بين التصورات المختلفة لغايات التعليم وأهدافه واتجاهاته العامة . .

2 ـ هيمنة الاتجاهات الفكرية المحافظة على أغلب جامعاتنا ومؤسساتنا التعليمية ، ولم تكن هذه الاتجاهات سوى ارثا للسنين الطويلة التي سيطرت فيها القوى الرجعية على الجامعات ، خلال فترات الهيمنة الاستعمارية ، ولا ينبغي أن يقودنا هذا التعميم الى إغفال الدور الذي قامت به مجموعة من المفكرين التقدميين ولا أن نغفل اسهاماتها ، لكن هذا الدور ظل محدودا الى أبعد الحدود ، وظلت السيطرة كاملة للاتجاهات الرجعية . .

3 ـ ان الأنظمة التي أرادت أن تتطور بالتعليم وتنتشله من سلبياته ، هذه الأنظمة لم يكن في مقدورها أن تواجه التعليم كثورة حتمية ، ومن أجل ذلك فقد اتجهت في بعض الأحيان الى تقرير مجانية التعليم ، وذلك دون أن

تتجه الى أحداث تعديلات جوهرية في مناهج التعليم وفلسفته ومن ثم انطوت قراراتها لمجانية التعليم على جانب اعلامي دعاوي ، اكثر مما تحولت الى تغييرات جذرية في الهيكل التعليمي وفي طبيعته . .

4 ـ ان أحد الوجوه الأساسية للازمة التعليمية ، هو غياب التخطيط العلمي الشامل والمتكامل للسياسة التعليمية ، وهو أمر كان من الضروري أن يشكل منطلقاً أساسياً من منطلقات نشر التعليم وتعميقه ، ولعل غياب هذا التخطيط ، بل وانعدامه في معظم الأحيان ، ظل أحد الأسباب الرئيسية التي تجمد امكانيات المواطن العربي وتتسبب في عدم الإستفادة من العناصر المؤهلة ان لم نقل في دفعها الى الهجرة . ولعل خير دليل على ذلك هو هذه المجاميع الهائلة من خريجي الجامعات في مختلف التخصصات التي قد لا يحتاج اليها المجتمع العربي في هذه المرحلة من تطوره ، وهذا يعني اننا نضعها امام خيارين : اما الهجرة أو القبول صاغرة بالعمل في غير تخصصاتها .

5 ـ ان هناك انفصاماً مذهلاً بين نظام التعليم العربي وبين المجتمع العربي ـ ولعل أبرز مخاطر هذا الانفصام انه يقود الى تثبيت مجموعة من المفاهيم القاصرة التي لا تراعي ضرورة الربط بين النظام التعليمي والحاجة التنموية في المجتمع كما يقودنا الى الاصطدام بحقيقة مؤسفة ، وهي ان ما حققه المجتمع العربي من تقدم وتطور على المستوى الاقتصادي والاجتماعي ، ظل بعيدا عن مناهج جامعاتنا ومستواها العلمي . والدليل على ذلك أن الجامعات العربية ، هي بالدرجة الأولى مجرد معامل لتفريخ الموظفين ، ولم تتجه الى أن تصبح مراكز للبحث العلمي ، وهو ما ينبغي أن يكون مفهومها وهدفها الأساسي . .

اِتّجاهَاتٌ مُتَخلّفَةٌ
في
الـدَّرْسِ ٱلأدَبيّ

إذا كان ما أوضحناه في المقال السابق ، يشكل حدود وملامح الأزمة العامة في العديد من أقطار الوطن العربي ، وإذا كانت تلك هي صورة أو واقع المناهج التعليمية في الوطن العربي . فاننا يجب أن نعترف بأن وضع الحلول الملائمـة لعناصـر هذه الأزمة ، هو المقدمة الضرورية في أي تغيير ثقافي حقيقي ، وهي حلول ترتفع في الواقع أو هي ينبغي أن ترتفع فوق الجزئيات والتفاصيل التي لا بد منها في النهاية ـ بطبيعة الحال ـ الى مستوى النظرة الشاملة النقدية بالضرورة والثورية لا مجرد الاصلاحية لهيكل البناء التعليمي وطبيعته واتجاهاته وفلسفته ، حتى لا

يستمر هذا الانفصام وحتى ينتهي هذا التعثر والارتباك .

وازاء كل ذلك ينبغي أن نضع نصب أعيننا حقيقة لا يمكن تجاهلها أو تخطيها ، وهي ان المواطن العربي بات يعي. ويدرك ، انه مواطن ينتمي الى أمة ، ولا ينتمي الى مجرد كيانات قزمية اقليمية تغتال طموحاته وتحد من انطلاقته .

وهكذا فان الاتجاه نحو صياغة مناهج التعليم العربي ، وفق اسس قومية وحدوية ، هو الهدف الأساسي الذي ينبغي أن نتجه نحوه لكي لا نصل في نهاية المطاف الى طريق مسدود ولكي لا أخرج عن موضوع هذا البحث الذي يهتم بالتركيز على الأسس والمنطلقات الجماهيرية التي ينبغي أن تشكل الكيفية التي تتم في ضوئها عملية تدريس الأدب العربي . فانني أعود لأؤكد بأن تدريس الأدب العربي

واللغة العربية لا ينبغي أن يخرجا عن هذا الاطار الوحدوي القومي ، بل لعله ينبغي أن يكون أساس هذا المنطلق وجوهره .

ولعلني في حاجة قبل أن أحدّد الوظائف التربوية والأهداف التي ينبغي أن يتجه اليها تدريس الأدب العربي ، ان أعرض لبعض الآراء التي حاولت أن تحدد مفهوم الأدب وان توضح مصطلحاته الدراسية ، ومبررات الاهتمام بتدريسه في المراحل التعليمية المختلفة . وبطبيعة الحال فإن الآراء تختلف في هذا الاتجاه ، بالقدر الذي تختلف فيه ميول المفكرين واعتقاداتهم السياسية والاجتماعية والفنية .

على انني سوف اتوقف عند مجموعة من الآراء لنفر من الأدباء الذين اتيحت لهم فرصة تدريس الأدب العربي ، ووضع مناهجه الدراسية للمراحل التعليمية المختلفة ، وأول هؤلاء هو الدكتور « طه حسين »

الذي يرى أن « الأدب ينقسم الى قسمين ، انشائي ووصفي ، فالأدب الانشائي هو الأدب حقاً ، هو الأدب الصحيح بمعنى الكلمة ، هو الأدب الذي ينحل إلى شعر ونثر والذي ينتجه الكتاب والشعراء ، لا لأنهم يريدون أن ينسجوه ، بل لأنهم مضطرون الى انتاجه اضطراراً في أول الأمر بحكم هذه الملكات الفنية التي فطرهم الله عليها .

وهذا الأدب الفني خاضع لما تخضع له الآثار الفنية من تأثر بالبيئة والجماعة والزمان . . وما الى ذلك من المؤثرات الأخرى ، هو مرآة لنفس صاحبه ، مرآة لعصره ، وبيئته ، كلما عظم حظه من الجودة والاتقان وهو بحكم هذا متغير متطور قابل للتجديد . وأما الأدب الوصفي فهو ما اتفق المحدثون على أن يسموه تاريخ الأدب » .

ومن خلال هذا التعريف الذي يقدمه « طه

حسين » نستطيع ان نتبين بأن ما يقدم للطلاب في مادة الأدب يدور في نطاق ما يسميه الدكتور طه حسين ، بالأدب الانشائي وهو ما اصطلح على تسميته في الكتب المدرسية ، بالنصوص الأدبية ، وبين الأدب الوصفي وهو ما يتصل بتاريخ الأدب .

ولا يتفق الأستاذ العقاد مع طه حسين في هذا التقسيم إنما يعطي للأدب مفهوماً شاملاً بقدر تعبيره عن الحياة واتساعه لاحداثها وتفاصيلها .

يقول العقاد : « يقال مثلاً ان الأدب ظاهرة اجتماعية أو يقال انه ظاهرة اقتصادية أو ظاهرة بيولوجية أو غير ذلك من الظواهر المختلفة ، ولك أن تقول عن ظاهرة من هذه الظواهر أو عنها جميعاً . . حسناً ثم ماذا ؟ ! فلا يسع صاحب هذا التعريف ان ينتهي بك الى باب مغلق على نوع من أنواع الأدب ، ذلك ان الأدب كالحياة لأنه تعبير عنها ، فلا يستوعبه مذهب ولا يستقر فيه أسلوب . . .

ويشير الدكتور (شوقي ضيف) إلى أن مدلول كلمة أدب اتخذ معـانٍ متعددة ، لكن أبرز معانيه ظلت تكمن في هذين المعنيين ، معنى عام هو كل ما يكتب في اللغة مهما يكن موضوعه ومهما يكن أسلوبه ، سواء أكان علما أو فلسفة أم أدباً خالصاً ، فكل ما ينتجه العقل والشعور نسميه أدباً ، ومعنى خاص ، هو الأدب الخالص الذي لا يراد به مجرد التعبير عن معنى من المعاني ، بل يراد به أيضاً أن يكون جميلاً ، بحيث يؤثر في عواطف القارىء والسامع على نحو ما هو معروف في صناعة الشعر ، وفنون النثر الأدبية مثل الخـطابـة والأمثـال والقصص والمسـرحيـات والمقامات » .

أما الدكتور « عز الدين اسماعيل » فيرى ان « الأدب سجل حي رآه الناس في الحياة وما خبروه منها وما فكروا فيه وأحسوا به ازاء مظاهرها . وهو بذلك يعد بصورة اساسية تعبيراً عن الحياة ووسيلته اللغة» .

تلك مجموعة من آراء بعض أساتذة الأدب ، ممن تولوا تدريسه أو وضع مناهجه في المراحل التعليمية المختلفة ، لكننا إذا تقصينا هذه الآراء وحاولنا أن نربطها بموضوعنا ، وان نجد بينها وبين المفهوم السائد في تدريس الأدب العربي في مدارسنا وجامعاتنا ، فإننا سوف نجد ان هذه المفاهيم بعيدة كل البعد عن المفهوم الذي يدرس من خلاله طلابنا ، الأدب العربي ، وان كان هناك ادعاء نجده مبثوثاً بين صفحات الكتب المدرسية ، يقول ان هذه الكتب تقدم صورة للحياة العربية ، وللمجتمع العربي ، من خلال المادة الأدبية التي تحتوي عليها هذه الكتب غير أن الأمر في الحقيقة بعيد عن ذلك كل البعد فالكتب المدرسية كما هي في واقعها ، لا تقدم للطالب أية صورة من صور المجتمع العربي ، لأنها تقيم درس الأدب العربي ، على قسمة العصور قسمة تاريخية لا قسمة أدبية ، وحسبنا ان ننشر لأعيننـا صفحة هذا

التقسيم ، حتى نعتقد اننا نواجه صفحة من كتاب تاريخي ، لا كتابا يعالج مشكلة من المشاكل الأدبية .

يقول (الزيات) في كتابه المدرسي ، « تاريخ الأدب العربي » : التاريخ الأدبي وثيق الصلة بالتاريخ السياسي والاجتماعي لكل أمة ، لذلك اصطلحوا على ان يقسموه على حسب العصور التاريخية والانقلابات الاجتماعية واتفق اكثر كتابنا على أن يقسموا تاريخ ادبنا الى أربعة أعصر :

1 ـ عصر الجاهلية .
2 ـ عصر ابتداء الاسلام .
3 ـ عصر الدولة الأموية .
4 ـ عصر الدول المتتابعة الى هذا العهد .

ويعلق على العصر العباسي المتأخر بقوله :

« ينسب هذا العصر الى العباسيين على وجه من التغليب لقوة أثرهم فيه ومبلغ نفوذهم منه ، لكن

الكلام فيه يتناول العباسيين في بغداد ، والبويهيين في فارس والحمدانيين في الشام والفاطميين في مصر والمغرب والأمويين في الأندلس ، الا ان هذه الأصقاع على تباينها وتنائيها انما كانت تأتم بهدى عاصمة العباسيين وتستمد منها ، ولذلك لا نذكرها إلا لماماً » .

ولقد سيطر هذا الإتجاه ، نحو تقسيم الأدب إلى هذه العصور الخمسة ، على برامج تعليم الأدب ، في معظم مؤسسات الوطن العربي التعليمية ، بحيث ان هذه المؤسسات ظلت تتمسك بهذا التقسيم كما لو كان قانونا ثابتا لا يمكن الجدل حوله ، ولا يدركه القصور بأي شكل من الأشكال ، وكان لذلك أثره السيء في مناهج الدراسة الأدبية ، وفي فهم الأدب وتحديد رسالته ووظيفته .

لقد أصبح الطلاب في مختلف مراحل التعليم لا

يستطيعون فهم قصيدة أو دراسة أثر أدبي ، دون أن يكون في أذهانهم ملك من الملوك أو خليفة من الخلفاء أو حاكم من الحكام . . أو دولة من الدول أو تيار سياسي ما ، وباتوا على قناعة تامة بأن الأدب لا يمكن أن يزدهر ويكون ذا شأن الا إذا كان قد ولد في ظل سلطان قوي أو نظام سياسي مستقر مزدهر ، وبالتالي فان فترات عدم الاستقرار السياسي ومراحل الاضطراب الاجتماعي وعهود انحطاط الدول وزوالها بالضرورة فترات انحطاط للأدب ؟! وتلك مغالطة لا يمكن أن تقود الى سوى سوء الفهم والإرتباك والتشويش . ولعل خير رد على هذا المنهج المرتبك الخاطىء ما أورده الدكتور طه حسين في كتابه « تجديد ذكرى أبي العلاء » وهو يرد على مؤرخي الأدب الذين جعلوا من القرن الرابع مثلا عصر انحطاط أدبي لسبب واحد لا غير هو انه كان عصر انحطاط سياسي .

يقول الدكتور طه حسين : « ولعمري ان عصراً ينبغ فيه من الشعراء الرضي والمتنبي وأبو العلاء ومن الكتـاب ابن العميد وابن عبـاد والصبائي ومن الفلاسفة الفارابي وابن سينا وابن لوقا ومن الأدباء أبو هلال وابن المرزبان والأمدي والجرجاني ومن النحويين ابن خالويه وابن جنى وأبو علي الفارس والسيرافي ، عصر ينبغ فيه هؤلاء وأمثالهم من المؤرخين والجغرافيين والفلكيين لخليق ان يكون عصر رقي ونهضة لا عصر ضعف وانحطاط في العلوم والآداب .

ولا أعتقد أن أحداً يمكن أن ينكر هذه الصلة القائمة(6) والوثيقة بين الدراسات الأدبية والدراسات التاريخية ويمكن لنا أن نؤكد بعد ذلك أن هذه العلاقة الوطيدة بين الأدب والتاريخ تبدو بارزة وشديدة الرسوخ في الأدب العربي بصفة خاصة ، بحيث لا يمكن أن يستغني فرع منها عن الفرع الآخر ، وبحيث يمكن أن نقرأ التاريخ العربي في الأدب العربي بنفس

القدر الذي نقرأ فيه الأدب العربي في التاريخ العربي لكن مثل هذه الحقيقة لا ينبغي أن تقودنا بأي حال من الأحوال الى الاقتناع بهذا المنهج في تدريس الأدب الذي يرتكز على هذا التقسيم التاريخي الذي يخلق تطابقاً ما أبعده عن الصواب بين الأدب والتاريخ ، بحيث يموت الأدب وسط مثالب تاريخ شوهته النزعات المختلفة والمذاهب المتباينة والصراعات السياسية التي لا تحصى ، فالتاريخ العربي لم يكتب بعد بالروح التي يجب أن يكتب بها ، ولم يبتعد كثيراً عن الكيفية التي كتبه بها الرواة وقدماء المؤرخين ، مجرد ركام من القصص والمبالغات بل والتناقضات أيضاً .

أَدَبُ الشَّحَّاذِيْنْ

تقول مقدمة كتاب النصوص المقرر على طلبة الصف الأول الثانوي « نود أن نقدم بين يدي كتابنا » الأدب والنصوص ، للصف الأول الثانوي ، دليلا يوضح المنهج الذي سلكناه في تأليفه ليحقق الهدف المرجو من دراسته ، فقد حرصنا على تحديد العصور الأدبية الثلاثة التي تناولها الكتاب ، وأبراز السمات المميزة لأدب كل عصر من خلال دراستنا لنصوصه ، ثم تركيزها في حقائق أدبية واضحة في نهايته ، وعنينا الى جانب الشعر بفنون النثر المختلفة من خطب ، ووصايا ومناظرات وحكم ، وامثال ورسائل ، ومحاورات ليكون الدارس على بينة منها ويستطيع أن يتابعها بيسر في العصور الأدبية التالية ، كما اخترنا

نماذج وافية من نصوص الشعر والنثر تمثل أغراضها في كل عصر وتوضح أهم الملامح التي تميز كل غرض مع الاشارة الى أكثر هذه الأغراض ازدهارا ، وسر ازدهارها في عصر وضمورها في عصر آخر والعناية بالأغراض الجديدة وتحديد ملامحها وبيـان العوامل التي أدت الى ظهورها .

وقد اتبعنا في معالجة النص الأدبي خطة ثابتة تبدأ بتهيئة نفسية تعين القارىء على تصور الجو الذي أنشىء فيه النص مع تعريف موجز بصاحبه وشرح الغامض من كلماته في هوامش الصفحات ، ثم شرح واضح يمكن القارىء من معايشة الأديب في فكره ومشاعره ثم تحليل بسيط يستوقف ذهن القارىء وحسه أمام مواطن الجمال في التصوير والتعبير ويفجر ما في الكلمات والصور من طاقات ايحائية تجعله أقدر على تذوق النص والتأثر به ، ثم مناقشة تقيس قدرة الدارس على الفهم والاستيعاب والتذوق وتفتح أمامه

مجالات أرحب للتأمل والموازنة والاستنتاج ، هذا ما يؤكده مؤلفو كتاب « الأدب والنصوص » للصف الأول الثانوي في المقدمة ، وهو كلام قد يبدو معقولا اذا اكتفينا بقراءة المقدمة ، دون أن نقرأ الكتاب أما إذا صدقنا ما يقولونه وشرعنا في تقليب صفحات الكتاب وقراءة النصوص التي قاموا باختيارها فان أول ما نفاجأ به هو انهم نسوا أو تناسوا ما التزموا به في مقدمة الكتاب وطفقوا يلملمون القصائد كيفما اتفق ودونما منهج محدد أو خطة واضحة ، فهم يختارون أسوأ النماذج ، وهم يتوقفون عند شاعر من الشعراء ، وينكثون كل قصائده بحثا عن قصيدة مديح قالها في لحظة ضعف أو لحظة فقر ، طلباً للمال ، وتقرباً من السلطان ، وحبا في الحصول على جارية جديدة يضمّها الى بقية جواريه ويبدو الأمر بعد ذلك ملحوظا ومبالغا فيه حتى يحس القارىء أن المسؤولين في التعليم قد كلفوا هذه اللجنة من الأساتذة بالبحث عن أردأ

نصوص الأدب العربي وأكثرها امتلاء بقيم التزلف والزيف والتدحنس على الأعتاب وعند أقدام الملوك والسلاطين ، أو كأن خطتهم التربوية تقوم على توجيه الطلاب الى مثل هذا النوع من « أدب الشحاذين » باعتباره أبرز الفنون الأدبية التي ينبغي أن ترسخ في الأذهان وتسيطر على الوجدان متناسين أن الفترة التاريخية التي يقدمون نماذجها الأدبية ، كانت أوج ازدهار الحضارة العربية ونضجها ، فكيف يمكن أن تمثلها مثل هذه النماذج الهزيلة المتخلفة ؟

كيف يمكن أن نوحي للطالب بأن ما يقوله التاريخ عن العرب كاذب ؟ فهم لم يساهموا في إثراء الفكر الإنساني وهم لم يشيدوا حضارة بددت سحب الظلام التي كانت تلف العالم برداء حالك من التخلف والقهر . . هم لم يصنعوا شيئاً من ذلك ، وعلى الطالب أن يكذب التاريخ ويصدق مؤلفي كتاب النصوص الذين يقولون له : ان العرب كانوا يهتمون

فقط بقصائد الهجاء والمديح والتفاخر بالأنساب والثأر والتعصب القبلي الى غير ذلك من المفاهيم المشوهة المضللة التي يحاول أن يغرسها مؤلفو كتاب النصوص في أذهان طلابنا .

على انني بعد ذلك كله أود أن أقدم نماذج من هذه المفاهيم التي يبشر بها هؤلاء الذين ادعوا انهم بتأليفهم لهذه السلسلة من الكتب انما يقدمون للجيل الجديد من شباب الأمة العربية ، صورة من الحياة العربية المتجسدة في الأدب العربي شعره ونثره .

وأول اختيارات هذه اللجنة الموقرة من الأساتذة قصيدة « للنابغة الذبياني » يقدمون لها بهذه المقدمة :

« كان للنابغة الذبياني مكانة رفيعة في بلاط الملك النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، ولكن الوشاة استطاعوا أن يوغروا صدر الملك عليه فغضب وهم ان يبطش به ، فهرب ولجأ الى ملوك الغساسنة في بلاد

الشام،فأكرموا وفادته ،وتهيأت له في ظلهم حياة ناعمة راضية ، ولكنه عز عليه أن ينجح أعداؤه في الكيد له ، وأرّقه الحنين الى رحاب الملك النعمان حيث قضى أسعد أيام حياته ، وكانت له فيها أجمل الذكريات ، فأخذ يكتب القصائد معتذراً للنعمان عن ذهابه للغساسنة ومدحه لهم محاولا تبرئة نفسه مما اتهمه به الوشاة ، ولقد استطاع بشعره أن يستل الضغن من صدر الملك وأن يعود إلى الحيرة » ثم يقرأ الطالب ويحفظ أيضا ، نصا هذه بعض أبياته التي تمثل نموذجا حقيقيا لأدب الشحاذين :

لئن كنت قد بلغت عني وشاية
لمبلغك الواشي أغش وأكذب
ولكنني كنت أمرأ لي جانب
من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوك واخوان اذا ما أتيتهم
أحكم في أموالهم وأقرب

كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم
فلم ترهم فـي شكر ذلك اذنبوا
فـلا تتركني بـالـوعيـد ، كـأنني
الى الناس مطلى بـه القار أجرب
ألم تر أن الله أعطاك سورة
تـرى كل ملك دونها يتـذبذب
فـانـك شمس والملوك كـواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

والقصيدة بعد ذلك تغني عن أي تعليق ، فهي قصيدة جيدة الصنعة لشاعر شحاذ اتفقت كل المصادر على انه كان أول المتكسبين بالشعر وأول من سخر الشعر في خدمة مضامين التزلف والنفاق والزيف، فما الذي جعل مؤلفي الكتاب يختارون هـذا النص ؟! أي هـدف كان يحـركهم ؟ وأي اتجاه

يدفعهم ؟ وأي مضمون تربوي كان يحفزهم على العناية به واختياره ؟ لقد اختاروه هكذا كيفما اتفق دون أن تمر بأذهانهم مثل هذه الأسئلة التي لا يفكر فيها المقاولون في العادة لأنهم لو فكروا فيها فان المقاولة لا بد أن تكون من نصيب غيرهم ويبدو أن المقاولة هي الشاغل الرئيسي لهم .. وتبقى بعد ذلك خدمة الأجيال التي يدعونها بعيدة عن أذهانهم كل البعد .

فإذا تجاوزنا الشعر وانتقلنا الى النثر ، لكي نتبين كيف يتم اختيار النصوص النثرية . فاننا نجد ان الأساتذة لم يحيدوا عن منهجهم السابق في الاحتفاء بالرداءة وبالمضامين المضللة التي لا تزرع في أعماق أجيالنا سوى قيم التخلف الهدامة ،.. فتحت عنوان (مناظرة بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل) نقرأ هذه المقدمة التي يسميها المؤلفون (جو النص) :

(تقدمت السن بسيد بني عامر ، فتنحى عن رئاسة القبيلة وكان أولى الناس بعده بها : علقمة بن علاثة . وعامر بن الطفيل ، فتنازعا عليها واشتد الجدل بينهما وأوشك هذا النزاع ان يفرق العشيرة بالصدام والقتال فتواعدا على الخروج ليحتكما الى سيد من حكماء العرب . وهاب الناس أن يحكموا بينهما خوفاً من عاقبة تفضيل احدهما على الآخر فلما عرف هرم بن قطبة الفزاري أمرهما ، رحب بهما ، واستطاع أن يحسم النزاع بينهما وان يعيد الصفاء الى حبيهما . واليك بعضا من المناظرة التي حدثت بينهما .

قال عامر : (والله اني لأكرم منك حسبا ، واثبت منك نسبا . وأطول منك قضبا) .

فقال علقمة .(والله لأنا خير منك ليلا ونهارا . اناظرك واني لبر وانك لفاجر. واني لولود وانك لعاقر واني لوفي وانك لغادر) .

فقال عامر : (أنــاظرك وأنا أنشر منك امة وأحسن منك لمة . وأبعد منك همة) .

فقال علقمة : (أنا خير منك أشرا . وأحد منك بصراً وأعز منك نفراً وأشرف منك ذكراً) .

وهكذا يستمر هذا المزاد العلني العجيب ليأخذ صفحتين من الكتاب ثم لا يقول شيئاً . والا فما الذي يمكن ان يستفيده الطالب من هذا الحوار الذي يتغزل فيه (علقمة وعامر) في نفسيهما طمعاً في رئاسة القبيلة ؟ وأي هدف تربوي أو فني يمكن أن يتوصل إليه الطالب من خلال قراءاته لهذا الحوار الساذج ؟ ! ان المؤلفين يقولون لنا في تحليلهم للنص . . (ان هذا النص يظهر بوضوح) .

ان المنافرة تقوم على الفخر ، فخر المنافر بحميد الخصال وذمه بقبيح الصفات . وان كلا المنافرين يذكر من صفاته ما يميزه ويفضله على منافره . وانه

يذكر ما يسبق الى خاطره منها بدون ترتيب أو تعمق . وان العربي كان يفخر بصفاته البدنية . فعامر يفخر بطول قامته وجمال شعره . وعلقمة يفخر بحدة بصره) .

هكذا يحلل لنا المؤلفون هذا النص لنرى كيف يبدو العربي في الكتب المدرسية ؟!

فإذا انتقلنا بعد ذلك الى النصوص المختارة من أدبيات العصر الأموي ، فإن هذا العصر يبدو قفراً من الأدب الجيد (في كتاب النصوص فقط) فأعضاء اللجنة المحترمين لم يجدوا في هذا العصر أدباً أو شعراً يمكن أن يختاروا منتخبات منه ، سوى تلك المعركة المضحكة التي قامت بين جرير والفرزدق ، دونما سبب أو مبرر . . وهذه المعركة تبدو في كتب الأدب العربي مثل (صراع الديوك) مجرد لعبة شرسة لنهش الأعراض . من أجل هدف واحد لا غير هو تسلية

المتفرجين من الأمراء والحاشيـة وبقية الشلة من الموسرين والمترفين المرفهين . وقد سميت هذه اللعبة التي خاضها جرير والفرزدق والأخطل ومجموعة أخرى من شعراء البلاط . (معركة النقائض) لأن الشاعر من هؤلاء كان يقول القصيدة فيرد عليه خصمه بقصيدة أخرى من نفس وزنها الشعري وقافيتها ، ثم يأتي الى الأفكار والمعاني التي قالها الشاعر الأول فينقضها ويردها عليه ويحيلها الى ذم وهجاء ، وتبدأ هذه القصائد بالفخر بالنفس وبالقبيلة ينتقل بعدها الشاعر الى شتم خصمه ونهش لحمه ونعته بأشنع النعوت . . وتنتهي القصيدة في أغلب الأحيان بمدح الخليفة والتمسح بأعتابه طمعاً في الحصول على هداياه وهباته . . وتؤكد لنا معظم الروايات التاريخية بأن شعراء هذه اللعبة لم يكونوا أعداء لأنه لم تكن هناك أسباب معقولة تبرر هذه العداوة . إذن فالنقائض لم تكن سوى برنامج ترفيهي لتسلية الخليفة .

يقول الفرزدق مادحا الخليفة بعد أن ينتهي من شتم خصمه .

ومصعب بـالتـاج يخفق فــوقـه
خرق الملوك له خميس جحفـل
ملك تسـوق له الـرماح أكفنـا
منــه تعـل صــدورهن وتنهـل
حلل الملوك لبـاسنـا في أهلنــا
والسابغات الى الوغى نتسربـل
احـلامنـا تـزن الجبـال رزانــة
وتخـالنـا جنــا إذا مـا نجهــل

فيرد عليه جرير :

اخذي الذي سمك السماء مجاشعا
وبنى بناءك في الحضيض الأسفل

ولقـد بنيت أخس بيت يبتـنى
فهـدمت بيتكم بمثـلي يـذبـل
اني انصببت من السماء عليكم
حتى اختطفتك يا فرزدق من عل
احـلامنـا تـزن الجبـال رزانـة
وتخـالنـا جنـا إذا مـا نجهـل

ولا يكتفي كتاب النصوص الأدبية بنقل هذه المعركة المفتعلة الساذجة فيخصص فصلاً يتحدث فيه عن الشاعر (جرير) ليؤكد أن هذا الشاعر قد أثرى الشعر العربي بمدائحه . .

يقول الكتاب ص 288 (اتجه جرير بمدائحه الى كل من يعطيه المال فمدح كبار الناس والولاة والخلفاء وتدفق عليه المال الكثير وقد لزم الحجاج بالكوفة وظل يمدحه حتى أثار غيرة الخليفة (عبد الملك بن مروان) وكان الحجاج شديد الـولاء لعبد الملك فـأرسل

(جريرا) إليه فلم يسمح عبد الملك لجرير أن يقف بين يديه إلا بعد شفاعة وقال له :

ما عساك أن تقول في بعد قولك في الحجاج :

من سد مطلع النفاق عليكم
أم من يصول كصولة الحجاج

فتحفز جرير ومدح الخليفة بقصائد عدة منها قوله :

ألستم خير من ركب المطايا
واندى العالمين بطون راح

وقد قال النقاد في هذا البيت :

انه امدح بيت قالته العرب (هكذا) .

ومما قاله في الخليفة أيضاً :

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه
ما قام للناس حكام ولا جمع
أنت المبارك يهدي الله شيعته

إذا تفـرقت الأهـواء والشيــع

يا آل مروان ان الله فضلكم

فضلا عظيما على من دينه البدع

ما كان دونك من مقضى لحاجتنا

ولا وراءك للحـاجات مـطلع

وهكذا فإن أدب الشحاذين يطغى على كتب النصوص الأدبيــة ، ليضلل الـطلاب ويــطمس كــل القيم والأخلاقيات التي كانت احدى العلامات البارزة في الحضارة العربية الاسلامية .

عِندَمَا يُصْبِحُ
الدَّرْسُ الأَدَبِيُّ تَضْلِيلاً

تعتمد كتب الأدب المدرسية ، اعتماداً كلياً على المنهج التاريخي الذي يخلق تطابقاً ما أبعده عن الصواب ، بين الأدب والتاريخ ، بحيث يموت الأدب وسط مثالب تاريخ شوهته النزعات المذهبية المختلفة ، وزيفته الخصومات المتوالية ، وطمسته الصراعات السياسية على السلطة ، التي لا تحصى في التاريخ العربي الإسلامي .

فالتاريخ العربي لم يكتب بعد بالروح التي يجب أن يكتب بها . ولم يبتعد كثيراً عن الكيفية التي كتبه بها الرواة والمؤرخون القدماء . مجرد ركام هائل وعشوائي من القصص التي تتسم وتمتلىء بالمبالغات والتناقضات

التي توقع الانسان في حيرة ، وتجعله عاجزاً كل العجز عن اكتشاف الاتجاهات الحقيقية وراء الأحداث .

فالمنهجية تختفي تماماً ، والنظرة التاريخية الشمولية للمجتمع العربي معدومة تماماً .

فقط ، مجرد سرد لتاريخ أفراد ، وسيرة ذاتية لمجموعة من الخلفاء والأمراء والملوك .

وهكذا لم تتعرف أجيالنا على شاعر مثل المتنبي الا من خلال مدائحه لسيف الدولة أو كافور الاخشيدي ، ولم نستطع أيضاً أن نعرف شيئاً عن حياة (جرير) الأولى ، إلا انه جاء إلى العراق ليمدح الحجاج بن يوسف الثقفي ، وعندما استمع اليه الحجاج ، رأى ان هذا الشاعر يمكن أن يكون مفيداً للخليفة ، فبعث به اليه كما يبعث له بالخراج الذي يجبيه أو الجندي الذي يصطفيه .

وهكذا طمرت شاعرية « جرير » تحت أردية

الخليفة كما ظلت شاعرية « المتنبي » حبيسة هذا الاطار القاتل لا تتعداه ، وبالرغم من الدراسات الكثيرة التي كتبت عن « أبي الطيب المتنبي » كشاعر عبقري والأبحاث المتعددة التي نشرت عنه ، وحاولت أن تتفهم شاعريته وتقترب من عالمه الخاص ، وتحدد معالم وقسمات تجربته الشعرية بالرغم من كثرة هذه الدراسات ، فان مفتشي اللغة العربية ومقاولي كتب الأدب المدرسية ، ظلوا يتجاهلون هذه الدراسات ولا يعترفون بها ، انهم يتمسكون فقط بهذه المخلفات الأدبية التي لا تعنى بهذا الأدب الذي تمناه الشعراء لأنفسهم ، فكان نجوى نفوسهم وذوب أفئدتهم . . بمقدار ما تعنى بهؤلاء الذين انطووا على أنفسهم فعاشوا حياتهم الفنية حياة لا تحدها اقياد السلطة ولا تغلها سلاسل الذهب كما كانت تنظر الى أولئك الذين طووا أنفسهم فأغفلوا منها جوانبها العميقة وأغوارها البعيدة ، ليعيشوا على هذه الطبقة السطحية الباهتة

منها ، وليعبروا عن هذه الاهتزازات القريبة الدانية التي لا تمتاز بالعمق ، ولا تتصف بالثبات ولا تدل على أصالة ، بل انها ـ هذه المخلفات الأدبية ـ لم تكن تهتم بهؤلاء الأدباء الرسميين ، اهتماماً يتناول كل جوانب حياتهم ومظاهر فنهم وجذور مواهبهم وانما كانت تهتم بهم من حيث هذه الصلات التي تربطهم بالقصور أو تدنيهم من الخلفاء أو تمت إلى الأمراء والملوك بصلة أو سبب .

ومن هنا لم يكن في هذه المخلفات الأدبية ما يغني كبير غناء في[7] التعريف الحق بالأدباء ، ولم يكن فيها هذه المنافذ التي تتفتح عن نفوسهم ، وهذه المظلات التي تكشف عن آفاقهم، وانما هي مجموعة من القصص العابرة ومن الحوادث الطارئة ، ومن هذه الأوصاف التي تتناول مجلس الخليفة ، كيف أقبل عليه الشعراء ينشدونه وكيف أوقفوا ببابه حتى اذن لهم . وكيف تملكه الأرق حتى استدعاهم ، ثم كيف

استمع اليهم حتى أدركته الصلاة مرة أو حتى ملهم وأدركه النعاس مرة أخرى ، وكيف أفاض عليهم من جوائزه ونثر عليهم من خيراته وعطاياه وهي في مجموعها حوادث لاتنبض بالحياة ، لأن الحياة قد خفتت فيها ، ولا يسري فيها الدم لأن الدم قد نضب منها. والتجىء ان شئت الى ترجمة أكثر من شاعر ولذ بأكثر من كتاب من هذا التراث الأدبي، وأنفق ما استطعت من جهد ومن وقت فلن تظفر بغير هذه الأطلال التي عفت عليها حياة القصور فتركتها خامدة باردة وأغفلت منها جوانبها الحية النشيطة . .

وعرضت لنا صور القصور التي استمعت الى إنشاد الأثر الأدبي لا صور الدور التي شهدت نشأته ، وجدت امزجة الخلفاء ، لا امزجة الشعراء ونماذج الكتابة الديوانية لا نماذج الكتابة الوجدانية ، هذا فيما يتعلق بالكيفية التي تتم بها دراسة الشعراء واختيارهم ، فإذا حاولنا أن نتتبع طريقة الكتب

المدرسية في التـذوق وفهم البيت من الشعر أو المضمون العام للقصيدة فاننا لا نجد سوى هذا التركيز والعناية بشرح المفردات اللغوية والوقوف عند المعنى الاجمالي للبيت من الشعر ، والغرض العام الذي يشتمل عليه النص ثم محاولة توضيح ما في النص من ألوان البلاغة ، ويصر واضـع اسئلة الامتحانات على التمسك بهذا الإتجاه ، دون البحث عن سر الجمال وموضع الحس والقيمة الفنية لاختيار لفظ معين أو أسلوب خاص ، أو اختيار صورة معينة تعتمد على استعارة أو تشبيه ، وقيمة هذه الإستعارة أو الكناية في تقوية المعنى أو توضيح الصورة أو إثارة انفعال ، ودون أن يعنى بتوضيح الفكرة وعلاقتها بالصورة ، وعلاقة الصورة بالألفاظ والأساليب .

وإذا كان الأمر كذلك فيما يتعلق بتدريس ما يعرف بالنصوص الأدبية فإن الطريقة المتبعة في تدريس اللغة العربية بصفة عامة لم تكن أحسن حظاً .

فقد ظل الاتجاه المسيطر في[8] تدريس اللغة قائماً على تجزئتها وتقسيمها الى فروع متعددة بحيث أصبح كل فرع من هذه الفروع معزولا عن الآخر انعزالا تاما ، وكان اتجاه هذا المنهج كثيرا ما يهدف الى جعل كل فرع غاية في حد ذاته ، ومن أبرز عيوبه أيضا أنه كان يرتب الحقائق ترتيبا منطقيا وانه لا يراعي استعداد وقدرات المتعلم وانه جعل القواعد والمصطلحات تقصد لذاتها ولا ينظر اليها باعتبارها وسائل يخدم بعضها البعض في اطار وحدة اللغة ولعل أشهر من تنبه لعيوب هذا المنهج قديما « ابن خلدون » حيث ناقش هذا المشكل عند تعرضه لكيفية تكـوين الذوق الأدبي ، فهو يعتقد أن ملكة التذوق لا تنشأ بمعرفة قوانين اللغة والبلاغة ، فهذه القوانين تفيد صاحبها علما ولا تفيده حصول الملكة بالفعل ، والوسيلة لتكوين الذوق الأدبي هي أن يقوم المتعلم بحفظ الجيد من كلام العرب وتكراره له ، وممارسته وتطبيقه ، ثم

أخيراً النسج على منواله حتى تتكون الملكة والقدرة عنده وهذه النظرة تتفق مع ما تدعو اليه التربية الحديثة لتكوين الذوق الأدبي حيث يوفر للمتعلم الأساليب العربية المتنوعة من القطع الجيدة الشعرية والنثرية ، وتطالب المتعلم بالممارسة والتطبيق والموازنة حتى يتكون الحس الأدبي ، وبتركيز التربية الحديثة على الجانب التطبيقي والعملي تبعد المتعلم بقدر الامكان عن الاهتمام المبالغ فيه بالقواعد والقوانين البلاغية .

وبعد ذلك كله يمكن أن نلخص سلبيات المنهج المتبع في تدريس الأدب العربي في النقاط التالية : ـ

1 ـ ان هذه المناهج تعتمد النظرية المدرسية التي تقيم درس الأدب العربي على قسمة العصور قسمة تاريخية لا قسمة أدبية ، بحيث يظل الأدب مجرد تابع للسياسة أو هو يظل ظلا لها ، وبحيث يتحول الى نوع من السيرة التاريخية للملوك والسلاطين والدول لا

أكثر ، وتنمحي بذلك النوازع الفردية للشعـراء وتغيب شخصياتهم وعبقريتهم فلا نعرف من حياة كثير من الشعراء الا ما يتصل بممدوحيهم ولا نعرف من نشأتهم الا هذه الروابط القائمة بينهم وبين الأمراء حين يقبلون عليهم أو بينهم وبين الملوك حين يساقون اليهم .

2 ـ ووفق هذا المنهج فان انتقاء النصوص يتم بطريقة عشوائية لا يراعى فيها ضرورة غرس القيم الفاضلة في أعماق الطالب من خلال تقديم النصوص الأدبية التي تمتلىء بهذه القيم وتحتفي بها ، فنحن لا نجد سوى المديح والنفاق ونحن لا نجد الا هذا الهجاء المقزع لأتفه الأسباب حتى أن نقائض جرير والفرزدق حظيت باهتمام كبير من قبل مؤلفي الكتب المدرسية .

3 ـ ان معظم كتب النحو المدرسية تتعامل مع اللغة

وقواعدها كأنها مجموعة من المعادلات الرياضية وتضعها في قالب تجريدي دون ربطها بالواقع ودون ان تجعلها تعطي الاحساس بامكانية التعامل بها واستخدامها في الحياة ، ناهيك عن توظيفها في خدمة طموحات الانسان العربي وآماله . . فالأمثلة التي تقدمها كتب النحو المدرسية ، لتطبيق القاعدة النحوية هي باستمرار مجموعة من الجمل الساذجة التي تعود الطلبة على تكرارها حتى باتوا يعرفونها ويحفظونها عن ظهر قلب وحتى ان كثيرا منهم لا يستطيعون تقديم جملة جديدة خارج نطاق الجمل المقدسة التي يفرضها مؤلفو الكتب المدرسية مثل : « أضحى النسيم عليلاً » و « ليس القمر إلا سراً محجباً ؟!» و « أمست الطيور عائدة إلى أعشاشها » و « بات الحارس يقظا » و « يجتمع قادة العرب في مؤتمرات القمة لخدمة القضايا العربية » . و « يعلن التجار عن بضائعهم لترويجها » « و« يؤذن الديك في الصباح » ، ومثل

« يشترك العامل وصاحب المصنع في النهوض به » ، و « يتعامل العامل وصاحب العمل في النهوض به » ومثل « وقف الزعيم بين أبناء الشعب يحف به الولاء والتقدير » ومثل « ما زال السلام أملا محببا وما برح رواده عاملين على اقراره وما انفكت الجهود في ذلك دائبة » هذه مجموعة من الأمثلة والجمل المقدسة التي تمتلىء بها كتب النحو المدرسية ، ومصدر قدسية هذه الكتب كونها ثابتة لا تتغير في جميع المراحل وعلى كافة المستويات ، فقد أجهد مؤلفو الكتب المدرسية أنفسهم في اختراع هذه الجمل العجيبة أول الأمر ، ثم أصابهم الكسل ولا نريد أن نقول العجز فبدأوا ينسخون هذه الجمل المقدسة لكل المراحل فلماذا التعب وهم « بابوات » اللغة العربية ، لا أحد يمكنه أن يحاسبهم أو يفكر في ذلك مجرد تفكير ؟!!

ولست أحب في الحقيقة أن يعتقد القارىء انني اخترعت الجمل السابقة اختراعا ، لأنني لو فعلت

ذلك ، فانني أخشى أن أتهم بالتحامل ، ومن أجل ذلك فانني أود أن الاحظ أن كل الجمل التي أوردتها ، هي من الجمل التي يمتلىء بها كتاب القواعد الأساسية في النحو والصرف والتدريب عليها ، (الجزء الأول) وهو من تأليف لجنة من أساتذة اللغة العربية ، وهو مقرر على طلبة السنة الأولى الثانوية في مدارس الجماهيرية ، ويبدو أن هذه اللجنة الموقرة من الأساتذة تعيش في مكان آخر ، ليس الجماهيرية بأي حال من الأحوال فلو كان أعضاء هذه اللجنةيعيشون في الجماهيرية لغيروا رأيهم في مؤتمرات القمة وأدركوا ألاعيبها ولو كانوا يعيشون في الجماهيرية ، لعرفوا بدون شك أن العامل وصاحب العمل لن يشتركا في النهوض بالمصنع منذ أن انتقل العمال من خانة الإجراء إلى عالم الشركاء وغاب مصطلح « رب العمل » إلى غير رجعة .

ولو كان أعضاء اللجنة الموقرة يعيشون في

الجماهيرية لأدركوا أن التجار لم يعد في مقدورهم الاعلان عن بضائعهم لتـرويجها ، لأن المجتمـع الاشتراكي الجديد لن يسمح لهم بذلك .

ولو كان أعضاء اللجنة الموقرة يعيشون معنا في الجماهيرية لقرأوا الكتاب الأخضر وحضروا المؤتمرات الشعبية ولمسحوا من رؤوسهم تلك المصطلحات الملكية التي تؤكد على الولاء والاجلال والتهليل والتقديس والطاعة والخنوع الذي ينبغي أن يمتلىء به الشعب عندما يستمع الى اسم رئيسه أو حكومته أو مليكه المحبوب،لو كان هؤلاء يعيشون معنا لأدركوا كل ذلك ، لكنهم مع الأسف الشديد يعيشون بعيدا عنا ، ويضللون أجيالنا ويلعبون لعبة التاجر الذي يروج لبضاعة كاسدة .

والحقيقة التي يجب أن نعرفها هي انه بالرغم من وجود اسم الجماهيرية على أغلفة الكتب المدرسية ،

وبالرغم من وجود اسم امانة التعليم في الجماهيرية على نفس الأغلفة وبالرغم من ادعاء بعض لجان هذه الأمانة بانها قامت بتأليف هذه الكتب وصياغتها ، وبالرغم من كل ذلك فانني اعتقد ان ما سمعته صحيحا كل الصحة وهو ان (دار المعارف بمصر) هي الجهة التي تصدر هذه الكتب ، وهي الجهة التي ترسي دعائم هذه الجمل المقدسة ، وهذه المفاهيم المريضة المتخلفة ، واذا كان الأمر كذلك ، فتلك مأساة لا أدري الى متى ستستمر ، وحتى تنتهي هذه المأساة فان طلابنا في الجماهيرية سوف يستمرون في ترديد جمل تقول ان العامل وصاحب العمل ينبغي أن يشتركا في زيادة انتاج المصانع ، وان التجار ينبغي ان يجتهدوا في الاعلان عن بضائعهم لترويجها ، وان الشعب ينبغي الا يتردد في عبادة الملك أو الرئيس والخنوع للحكومة وان مؤتمرات القمة تعقد لخدمة القضايا العربية .

وهم بطبيعة الحال سوف يرتبكون ويدوخون طويلا

أمام ما تقوله الكتب المدرسية ، وما تقوله الجماهير وهم سوف يقعون في حيرة ، هل يصدقون هذه اللجنة من أساتذة اللغة العربية التي تقول لهم ان العامل وصاحب العمل يجب أن يشتركا في الإنتاج أم يصدقون ما يرونه أمام أعينهم بعد ثورة المنتجين، من زوال مصطلح العامل وصاحب العمل . وتحول المصانع إلى قلاع اشتراكية يملكها ويديرها المنتجون ؟!

○ وهم سيقعون في حيرة أيضا ، هل يصدقون ما يقوله الكتاب المدرسي عن التجارة أم يصرفون النظر عنه ليتابعوا كيف اكتسحت الجماهير ظاهرة الاستغلال المتمثلة في التجارة والتجار؟!

اني لا أ ملك اجابة على مثل هذه الأسئلة ولا أعتقد ان أحداً يملك الاجابة ، ما دامت مثل هذه الكتب مستمرة في تضليل طلابنا وخداعهم . . والى

أن نقوم بخطوة ثورية نبعد من خلالها طلابنا عن مثل هذه الكتب التافهة ، الى ان يتحقق ذلك فان طلابنا سوف يستمرون في ملء حقائبهم بهذه الكتب وملء عقولهم بهذه المفاهيم المريضة التي تحدثهم عن العامل وصاحب العمل . . والتاجر الذي يعلن عن بضاعته والقادة العرب الذين يجتمعون في مؤتمرات القمة لخدمة القضية العربية والديك الذي يؤذن في الصباح .

الأدبُ الذي نُريد

في الحلقات السابقة من هذا البحث ، تحدثت عن سلبيات المناهج المتبعة في تدريس الأدب العربي ، ووقفت عند اتجاهاتها المضللة التي تهدف بالدرجة الأولى الى تشويه التراث العربي ، وطمس إيجابياته وتوجهاته التقدمية ولعلني بعد ذلك كله قادر على تحديد التصور الذي ينبغي أن تكون عليه مناهج تدريس الأدب العربي ، لكي تحقق غاياتها الوظيفية وأهدافها المتوخاة ، من أجل خلق مواطن عربي الانتماء شديد الاعتزاز بتراثه الحضاري وقادر على تطويع هذا التراث وتكييفه والإنطلاق من خلاله إلى ما تطمح له الأمة العربية من تقدم وازدهار .

ويمكن لي أن ألخص هذا التصور في النقاط التالية :

[أولا :

(1) ينبغي أن تعبر كتب الأدب المدرسية عن طموح الانسان العربي المناضل ضد الاستعمار والصهيونية وحليفتهما الرجعية العربية ، وضد كل ألوان ودرجات وأشكال الذيلية والتبعية والاحتواء .

(2) ينبغي أن تتبنى كتب الأدب المدرسية كل ما يخدم ويدفع نحو تحقيق استراتيجية الوحدة العربية الشاملة .

(3) ينبغي أن تتبنى كتب الأدب المدرسية كل المفاهيم التي تحتفي بقدرات الانسان العربي وبقدرته على أن يصبح سيد نفسه دون أن يتسلط عليه أحد أو يسيطر .

(4) ينبغي أن تتبنى كتب الأدب المدرسية كافة المفاهيم التي تدين كل العلاقات الاجتماعية التي تقوم

على الظلم والاستبداد والقهر والاستغلال .

ثانيا : لكن الاتجاه نحو الأهداف سالفة الذكر ينبغي أن يتم وفق إطار علمي يحدد المنهج الذي ينبغي أن تتم من خلاله عملية تدريس الأدب العربي وهذا المخطط ينبغي أن يضع في اعتباره مجموعة من النقاط الأساسية يمكن أن نحددها فيما يلي .

إذا كان أغلب فلاسفة التربية يتفقون على أهمية المرحلة الأولية من التعليم ونعني بها المرحلة الابتدائية باعتبارها المرحلة التي يتم خلالها تحصيل المعلومات الأساسية التي تشكل نقاط انطلاق هامة ، إذا كان الأمر كذلك فإن أول ما ينبغي أن يتم الاهتمام به في هذه المرحلة هو التركيز على اللغة الأم التي يجب أن تكون هدف اهتمامات المربين الأول والأساس وقد أشار القائد إلى أهمية تعلم اللغة العربية (لأنها الوسيلة التي نتعامل بها مع كل الأشياء فالذي لا يعرف الفاعل

والمفعول وتخرج من الجامعة يخطىء حتى في المعادلات التي يعدها ، ولا يكون لكلامه معنى ، ويعتبر أمياً يحتاج إلى دورة في القراءة والكتابة ، والذي لا يعرف اللغة العربية هو مجرد انسان حفظ أشياء في رأسه ولا يستطيع أن يعبر عنها كتابة ، فاللغة أساس كل شيء فإذا لم تعرف اللغة لا يمكن فهمك إن كنت تتحدث عن المبني للمجهول أو للمعلوم أو فاعل أو مفعول ، نفي أو إثبات كأن تقول لشخص . أليس كذلك ؟ فيقول لك : نعم ، ومعناها نفي والصحيح بلى ، وتقول ألم يقد خالد بن الوليد المعركة ؟ فتقول نعم ، معناها لم يقدها خالد بن الوليد ، وهذه القضية ليست سهلة فالذي يسقط في اللغة العربية يسقط لأنه أمي فعلا ، أما الثقافة العامة والأشياء الأخرى مثل أمور الدين ، إذا لم تتعلمها هذا الشهر تتعلمها الشهر الآخر) .

وليس من مجال هنا لدرس العلاقات بين اللغة

والفكر لكي نظهر دقة القانون الذي يجعل من اللغة وتعلمها ركيزة أساسية في المدرسة الابتدائية . ولكن منذ الأيام الأولى في تعلم القراءة حتى البدء في استيحاء تاريخ الأدب ومفاهيمه الذي يظهر في المرحلة الثقافية.منذ هذه المرحلة ينبغي أن نعد مكانا واسعا للقـراءة وللتعبير الشفـوي والخطي والتمكن من تصريف الأفعال الذي يؤلف تحصيل ما لا بد منه في هذا المستـوى،كذلك نضع الغنى بالألفاظ والتمرس على صياغتها في مكانه من الأهمية على مدى الحياة المدرسية، غير ناسيـن أن نصل تدريجيا بين المدرسة والوسط المجتمعي ، وعلينا أن نفسح للتلميذ ليعبر عما في نفسه مؤمنين له نظامياً المكاسب التي تغني فيه روح الاختراع والابداع ، والاستخدام العملي لما تعلمه من مفردات وربطها بمحيطه الاجتماعي بحيث لا تظل دراسة اللغة نوعا من الدراسة في الآثار والمعالم الميتة .

ولا بد في هذه الناحية من إحياء هذه العلاقة المقطوعة بين طلابنا والقواميس اللغوية ، لأن القدرة على استخدام القاموس واكتشاف مدلولات الألفاظ ووظائفها الحيوية هي أمر لا بد منه لأي دارس يريد أن يلم باللغة ويعبر بها . ويبدو لي هنا أنه من المناسب أن أردد ما قاله : (أناتول فرانس) عن المعاجم اللغوية : « انني أحب معاجم اللغة ، وأنا لا أحبها لمجرد فائدتها العظيمة ، ولكنني أحبها لأنها تحتوي على شيء جميل فخم» . أنظر إلى معجم « غازيه » أو الى غيره من المعاجم وتصور انك ترى روح وطننا كله في هذا المعجم ، ليتصور ذهنك أن فيها أفكارنا وأفكار اجدادنا ! وأفراحنا وأفراحهم وأعمالنا وأعمالهم وآلامنا وآلامهم . ليخطر ببالك أن في هذا المعجم آثار الحياة العامة ، وحياة الدور والمنازل وآثار الذين استنشقوا الهواء الصالح ، وشموا النسيم العليل الذي نشمه اليوم ليخطر ببالك أن كل كلمة من

كلمات المعجم يقابله فكر من الأفكار ، كان فكراً يعبر عن جموعٍ لا نعرف عددها وعاطفة من العواطف كانت جمهوراً من النـاس لا يحصى مقدارهم . ليهجس في صدرك أن كل كلمة من الكلمات المجمـوعة انمـا هي لحم الوطن والبشـر ودمهـما وروحهما . .

كذلك فانه ينبغي التركيز على وحدة اللغة والابتعاد عن سلبيات المنهج التقليدي الذي يقوم على تقسيم المواد الى قواعد وأدب وبلاغة وانشاء ومطالعة وهو تقسيم غير سليم ، لأنه أساس غير ثابت،ومن شروط التقسيم العلمي السليم ، ثبوت أساسه ووجه الخطأ في تقسيم اللغة الى هذه الفروع ان الأساس فيه مادة الدرس وتارة اخرى طريقة التدريس فهو إذاً تقسيم يقوم على اساسين مختلفين .

مثال ذلك فروع المطالعة والمحفوظات والاملاء والانشاء إذا حاولنا أن نتتبع أساس التقسيم في هذه

المواد فإننا لا بد أن نجده قائما على الطريقة لا المادة لأن المادة قد تكون واحدة في جميع هذه الفروع وإذا نظرنا الى النحو أو الصرف مثلا لم نجد أحدهما فرعا من فروع اللغة انما هو اساس فليس ثمة معالجة بطريقة خاصة كالمطالعة وانما يشترك في تعليم النحو عدد من الطرق فيها المطالعة والمناقشة والتدريب والحفظ والاملاء . . الخ . . وكذلك الحال في الأدب فهو لا يعتبر فرعا على أساس انه طريقة من طرق علاج المادة وانما هو موضوع الدرس فهو مادة الدرس نفسها لا طريقته . وهذه المادة تطالع أحياناً وتناقش احياناً أخرى وتحفظ إذا كانت صالحة للحفظ ، وهنا نتخذ للتقسيم أساسا جديدا هو وظيفة اللغة في الحياة والغرض الذي نهدف اليه من تعليمها فللغة وظيفة أساسية هي التفاهم ولهذا التفاهم ناحيتان : ناحية التعبير وناحية الاستقبال أو التحصيل ، لأن التفاهم يكون بين طرفين . بهذا تدرس اللغة ويتعلمها

التلاميذ على أن لها وظيفة ذات ناحيتين ولا يمكن الفصل بين الناحيتين في الحياة اليومية كما لا يمكن الفصل بينهما في حجرة الدراسة اثناء التعلم . وكل ما هنالك ان الحصة الواحدة من حصص اللغة قد تغلب عليها احدى الناحيتين ، التعبير أو الاستقبال والتحصيل ، وبذلك نضمن امكانية توليد الاحساس لدى الطالب بقيمة ما تعلمه ، لأن ما يدرسه يظل منسجما مع معاملاته اليومية كما يظل منسجما مع تفكيره وعصره .

ثالثا : تنمية ملكة تذوق النصوص الأدبية لدى الطالب وهي نقطة مهمة ظلت مناهج تدريس الأدب العربي تتجاهلها ولا زالت باعتمادها على العرض التاريخي للنصوص دون التركيز على ضرورة فهم الطالب لاسرار تراكيبها الفنية وكيفية تعامل الشعراء والأدباء مع اللغة من أجل خلق كون شعري خاص بكل شاعر أو أديب . .

ويتم بناء وتنمية ملكة التذوق لدى الطالب بتنمية قدرته على التقويم، وفق اسس ومعايير معينة تتجلى فيها قدرته على الاستنباط والفهم والجرأة في ابداء الرأي ، فمثلاً يمكن أن تعبر عن هدف تنمية تذوق الطالب لموضوعات في الأدب العربي على نحو يصف لنا سلوك التعلم أو برامج التعليم الذي يتوقع أن يحدث في مجال تذوق الأدب خلال مواقف تدريسه وتعلمه وذلك كأن يتضمن هدف تذوق الأدب نتائج التعلم الآتية(9) :

1 ـ يصف الطالب أهم الفروق بين الأدب الجيد والأدب الرديء .

2 ـ يميز الطالب مختارات من الأدب الجيد والأدب الرديء .

3 ـ يفسر تصنيفه لموضوعات أدبية معينة الى أدب جيد وأدب رديء .

4 ـ يختار بعض الكتب الأدبية ويقرؤها في وقت فراغه .

5 ـ يفسر اسباب حبه لمختارات معينة من الأدب

وتقتضي وسائل تنمية التذوق من المدرس أن يهيىء المجال والفرص الملائمة للطلاب كي يعبروا عن احاسيسهم ومشاعرهم أثناء مواجهتهم دراسة النص الأدبي وخلق الظروف المتاحة لتقييم النص وتقديره ومساعدتهم على عقد الموازنة بين النصوص . والمدرس الكفء للغة يستطيع ان يقود تلاميذه نحو التذوق والاحساس بجمال التعبير في نواحٍ ثلاث على الأقل .

أ ـ بمساعدتهم على تقييم الصعوبات في القراءة والتغلب عليها واكسابهم تلك المهارة .

ب ـ امدادهم بالحقائق الضرورية المتعلقة بالنص الأدبي ومساعدتهم على فهم تلك الحقائق وتطبيقها والتأثر بما فيها .

ج ـ خلق جو انفعالي عاطفي ملائم لتدريس الأدب » .

رابعاً : ليس من شك في ان الهدف من تدريس اية مادة من المواد هو ان لا يحصل الطالب على قدر معين من المعلومات فحسب وانما يتحدد الهدف الأساسي في نوعية هذه المعلومات وانعكاساتها الخلاقة و نتائجها الإيجابية التي تتحدد في ضوء ما تعطيه للطالب من خبرات تعينه على فهم محيطه فمثلا مدرس اللغة العربية الذي يتدارس مع طلابه بعض النصوص الشعرية أو النثرية لا بهدف تزويد طلابه ببعض الأبيات الشعرية الموزونة المقفاة أو ببعض الأساليب النثرية الجميلة انما يهدف الى أمر أبعد من هذا بكثير وهو فهم المعنى والتشبيهات التي تضمنتها قصيدة الشعر أو قطعة النثر حتى يستطيع استعمالها في حياته اليومية . .

ومن هنا تتحدد قيمة الدرس الأدبي وتكمن أهميته

بحيث يسهم مع بقية المعارف الأخرى التي يتلقاها الطالب في تزويده بمعاني المفاهيم التي يود الطالب معرفتها . فمثلا من خلال اتصاله بالنصوص التي يدرسها والتي تحوي في مضمونها مقومات القومية العربيــة،يمكن للطالب أن يقف على أبعاد هذه المقومات ، وأيضاً من خلال النصوص التي تتناول الجانب الاجتماعي يمكن للطالب أن يقف على أبعاد هذا الجانب وبدون أن يحس أثناء دراسـة هذه النصوص . . ان هذه المفاهيم مقصودة لذاتها دائماً تجيء هذه المفاهيم عرض . ومن المجالات التي تتيح للطالب أن يتصل بالمفاهيم المرغوبة ، المجـلات والصحف المدرسية والندوات والمناظرات وغيرها من الوسائل ، فعن طريقها تسلط الأضواء على بعض المفاهيم التي يحس الطالب بـالحاجـة الى فهمها وتوضيحها ومناقشتها ، وعن طريق مثل هذه النوافذ يتمكن الطالب من الوقوف على مصادر المعلومات

والحقائق التي من شأنها أن تشبع رغباته وتحفزه على التفكير المنظم . .

وبعد . فإن هذا البحث يضع في اعتباره حقيقة ثابتة وهي أننا سوف نحقق كل ما التقينا من أجله إذا نحن اختصرنا مساحات الكلام وأعطينا كل الوقت وكل الجهد للعمل من أجل اعداد وتنشئة الأجيال العربية تنشئة تربوية سليمة تصنع منهم رجالا حقيقيين للغد، وهذا يعني بالدرجة الأولى ضرورة تكريس كل الجهود من أجل خلق رجال احرار يملكون القدرة على التفكير الحر وعلى الحسم وعلى معرفة وجهتهم الصحيحة وأهدافهم المتوخاة . . ويكونون أيضاً رجالا ذوي شخصيات لها من القوة والثقة بالنفس ما يكفي لمقاومة كل الانحرافات التي يمتلىء بها هذا العالم . .

وينبغي أن نعلمهم كذلك انه ليس من أحد يمكن أن يستعبدهم انسانا كان أو فكرة ، لأننا لن نستطيع

أن نحقق أحلام هذه الأمة الا برجال احرار داسوا على كافة القيود التي تكبل ارادتهم . والتقدم الخلقي والمجتمعي لن يكون في النهاية غير ما يريده الرجال الذين صنعوه . وهذا القول الجامع يشمل كل مسؤوليات المربين في الوطن العربي الكبير من أجل تحقيق حلم الملايين العربية ودفع الأجيال العربية في الطريق الصحيح لتحقيق وحدة الوطن الكبير وحرية انسانه وتحرير حاجاته من هيمنة مستغليه وجلاديه وسالبي حريته وسارقي قوته . .

ان الهدف الأساسي من العملية التربوية ينبغي أن ينطلق نحو هدف واحد لا يتعداه ، هو بناء وخلق جيل عربي وحدوي يؤمن بأمته العربية ، بامكانياتها الخلاقة وقدرتها العظيمة على تجاوز كل مراحل التخلف والتشتت التي فرضت عليها من قبل قوى الاستعمار والرجعية . .

ووصولا الى هذا الهدف يمكن لنا أن نحدد كثيراً من أوجه السير ، التي ينبغي أن تقودنا في النهاية الى تحقيق هذا الحلم المقدس .

وعند هذا الهدف وفي قلبه تكمن غايات التعليم واتجاهاته . .

فِي الكُتُبِ المَدْرَسِيَّة :

حتى النَّبات يحكمه ملك

الذين يشاهدون شاشتنا المرئية ممن لا يملكون أجهزة « فيديو » وهوائيات « ويزى » ، لا بد أنهم توقفوا طويلا أمام صورة أولئك الأطفال من براعم وأشبال وسواعد الفاتح ، الذين استضافهم برنامج أهلاً وسهلاً ،ليتحدثوا الينا عن مستقبل،هم بناته وصانعوه ، وعن أطروحات فكرية رائدة ولدوا معها وانسابت في عروقهم ايمانا وعقيدة وفكرا صافيا نظيفا وطموحات كبرى ، واصراراً لا يقهر على تحقيق دولة الجماهير العربية من المحيط الى الخليج .

لقد كانوا مجموعة من الأطفال ، عمرهم بعمر الفاتح العظيم ، وكانت احاديثهم واستيعابهم لفكر

القائد ، بحجم التحولات العظيمة التي استطاع أن يحققها شعبنا عندما قرر أن يعيد صياغة التاريخ من جديد وفق اطروحات نظريته الرائدة ، وان يقدم المثل لقدرة الشعوب على تجاوز كل تراكمات عصور القهر والاستعباد والطغيان وهيمنة العلاقات الانسانية الظالمة التي تكرس مجتمع الاستغلال والطبقية والدجل السياسي .

وهكذا فان الجيل الذي ولد مع الفاتح العظيم وتربى على مفاهيمه ، ولم تلوثه عهود الاستعباد والتسلط ، بحيث بات غير مستعد لتقبل سلطة سوى سلطة الشعب ولا فكر سوى فكر الجماهير ولا نظرية سوى النظرية العالمية الثالثة التي تتجاوز كل المفاهيم المتخلفة في الفكر والسلوك وتبشر شعوب العالم كافة بعصر تنداح فيه كافة أشكال وانماط الحكم التقليدية التي تعادي الانسان وتغتصب حريته وكرامته وقوته .

هذا الجيل هو وحده الأمل ، وهو وحده القادر بصفائه وصدقه وحماسه وإيمانه وتقييمه الصحيح للأمور وقراءاته الواعية للتاريخ أن يحقق أحلامنا وطموحاتنا وآمالنا العظيمة ولكننا بقدر ما نمتلىء غبطة ونحن نرى هذا الجيل الذي ولد مع الفاتح العظيم يبدأ مسيرته المسؤولة ، بقدر ما نتوقف لنراجع أنفسنا ونتحمل مسؤولياتنا في ازالة كافة العوائق والعقبات التي تكمن في طريق هذا الجيل وتحاول أن تشوه فكره وتضلله . وتسعى الى أن تزرع في وجدانه النظيف بذوراً فكرية متعفنة لم تقم الثورة الا من أجل اكتساحها ودحرها والقضاء عليها . . وإذا كانت معسكرات الإعداد العقائدي تحاول ان تقدم لهذا الجيل كل ما يمكنه من القيام بدوره كمسؤول عن حماية فكر عصر الجماهير وتكريسه . فإن هذه المعسكرات قد تصبح مجرد جهد مؤقت ، إذا لم تضع في خطتها القضاء بصورة نهائية حاسمة على كافة ذيول الفكر

الرجعي المتعفن الذي ما زال يعشش في المدرسة والبيت وحتى في اجهزة الاعلام مع الأسف الشديد. . فالكتاب المدرسي الذي يضع امام التلميذ اساطير الملوك وعدالتهم ومواعظ الحكام وأمجادهم وقصائد شعراء البلاط وحذلقاتهم وكرامات الدراويش وخزعبلاتهم وفكر التصوف ودعوته الى السلبية والابتعاد في خدمة الواقع ، والأمثال والمواعظ التي تدعو الى الخنوع والذلة والاستكانة والانحناء امام عسف الحكومة وطغيان الحاكم . والبرنامج الاذاعي مسموعا كان أم مرئياً الذي يقدم مضمونا متخلفاً يعيدنا إلى مفاهيم الاستغلال والتسلط يحاول أن يدفعنا الى التعاطف مع بقايا هذا المجتمع المنهار هذه وكثير غيرها من أمثلة التخلف في برامجنا التعليمية والاعلامية . هي أدوات فكر مضاد لا تخفى على أحد خطورته . ولعل مكمن هذه الخطورة يكمن في قدرة هذه المناهج المتخلفة ، على خلق بلبلة في عقول الجيل

الجديد وإثارة نوع من عدم القدرة على الحسم إزاء قضايانا الفكرية المطروحة .

وإذا كنا نستطيع أن نلاحظ بأن (اعلامنا) يحاول باستمرار أن يتخلص من نقاط ضعفه عبر جهود متواصلة من كافة العاملين به على تقديم صورة مثلى لاعلام وثقافة عصر الجماهير إذا كان الاعلام كذلك ، فان جهازاً آخر من أجهزة التثقيف التي يفترض فيها ان تتحمل العبء الأكبر من هذه المسؤولية الخطيرة . . هذا الجهاز ما زال يغط في نوم عميق ، وما أعنيه هو الجهاز التربوي والتعليمي الذي لا يزال بعيدا كل البعد عن مفاهيم التربية والتعليم في عصر الجماهير ، لأن أهم ما يمكن أن تقوم به أمانة التعليم والتربية بأجهزتها المختلفة ، هو صياغة مناهج جديدة تتفق والأطروحات الفكرية الرائدة لشعبنا وتُضع الأجيال الجديدة التي تمتلىء بها مدارسنا ومعاهدنا وكلياتنا ، أمام مناهج تعليمية جديدة ،

موظفة لخدمة منطلقاتنا الرائدة وأطروحاتنا الجديدة .

لكن ما حدث ، وما هو مستمر في الحدوث يقول لنا العكس مع الأسف الشديد ، فالكتب المدرسية التي تدرس في مدارسنا هي كتب مستوردة كتبها مؤلفون بعيدون كل البعد عن تجربتنا ، وليس من المعقول أن يتوقع من « السباعي بيومي » أو « محمد خلف الله» أو «عمر الدسوقي» أو «شوقي ضيف» أو « عبد الحميد حسن » أو « الجمبلاطي » أو « بيومي نصار » وغيرهم من بقية الشلة التي احتكرت تأليف الكتب المدرسية منذ عهد فؤاد الأول التعيس وربما منذ عهد محمد علي وبقية نسله . . واذا لاحظنا ان معظم هؤلاء المؤلفين هم من الباشوات أو من الذين يحملون فكر الباشوات فاننا غير قادرين على أن نطالبهم بأكثر مما قدموه ، وقد كنا نتوقع أن يتنبه أساتذتنا لهذه النقطة فيعيدون النظر في منهاج هذه الكتب ويستبعدون منها كل ما يتنافى مع تجربتنا وفكرنا على الأقل ، إذا لم يكن

في امكانهم صياغة مناهج جديدة . على الرغم من احتواء تراثنا العربي على كثير من السطور المشرقة التي يمكن أن توظف لخدمة تجربتنا الجماهيرية ، لكن ما يبدو ان خبراء التربية والتعليم لا يقرأون التراث قراءة واعية . . وليست لديهم القدرة على تصور الجوانب الايجابية فيه لذلك فقد اختاروا الطريق السهل عندما طلب منهم تأليف كتب جديدة . وهكذا فقد تداولوا الأمر فيما بينهم وقرروا ان الأمر في غاية البساطة . ليبق مضمون كتب الباشوات، ولتغير اليافطة أقصد الغلاف . وقد تـم الأمر بهذا الشكل فعلا، تغيرت أغلفة الكتب وبقي المضمون هو نفس المضمون ، نفس النماذج المختارة ونفس الفكر المتحلف ونفس الاتجاهات التربوية العقيمة التي تكرس كل ما هو رجعي ، متخلف . وإلا فما الذي يمكن أن تعنيه هذه القصة التي اختيرت بكل غباء دونما تفكير فيما يمكن أن يؤكده مضمونها من أن للملك

صفات خاصة ينبغي أن يتميز بها وتؤهله للحكم وان للبيت المالك وافراده روائح معينة يتعرف عليها الأذكياء من الناس ، وان أفرادا معينين ينبغي أن يحكموا وأما الآخرين فانهم ينبغي أن يظلوا محكومين . . وهذه هي القصة باختصار كما جاءت في كتاب المطالعة الحديثة للمرحلة الاعدادية الجزء الأول . (يحكى عن الشعبي انه قال : أرسلني عبد الملك بن مروان الى ملك الروم ، فلما وصلت اليه أخذ يسألني عن أشياء كثيرة فأجبته ، فظهرت امارات العجب عليه ، وكانت الرسل لا تطيل الاقامة عنده فاستبقاني عنده اياماً كثيرة فلما أردت الانصراف قال :

أمن بيت مملكة أنت ؟ فقلت : لا ولكني رجل من العرب فدفع لي رقعة وقال : اذا أديت الرسائل الى صاحبك فاعطه هده الرقعة ، فأديت الرسائل عند وصولي الى عبد الملك وانسيت الرقعة ، فرجعت وأوصلتها اليه ، فقال : هل قال لك شيئا قبل أن

يدفعها اليك ؟ قلت نعم ، قال لي انت من أهل بيت مملكة ؟ فقلت : لا ولكنني رجل من العرب ، فلما خرجت من عند عبد الملك وبلغت الباب طلبني فرددت ، فلما مثلت بين يديه ، قال : أتدري ما في الرقعة ؟ قلت لا . قال : اقرأها . فقرأتها فإذا فيها عجبت لقوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره ؟

هذه هي القصة كما جاءت في الكتاب المذكور ، ويمكن لنا أن نتساءل بعد ذلك ما هو المضمون العام أو النتيجة التي يمكن أن يخرج بها التلميذ بعد قراءته لهذه القصة ، وهل يمكن أن نقول شيئاً آخر سوى انها تؤكد وتلمح على ان الجماهير تحتاج الى حاكم أو ملك ، وانها ينبغي أن تبحث عن هذا الملك ولو اضطرت الى صناعته من الفخار بمواصفاته الخاصة كي يحقق لهم العدالة ويهب لها الحرية ويحقق لها ما تصبو اليه ـ على رأي تعليق الاذاعات . . أما بعد نهاية المنصف فان كمينا آخر ينصبه لنا خبراء المناهج في امانة التربية ،

هذا الكمين هو الأسئلة التي تعقب نهاية الفصل ، اذ من المطلوب ان يجيب الطالب على أسئلة من مثل هذا النوع :

- عبد الملك بن مروان وملك الروم كلاهما سياسي بارع فأيهما أبرع في نظرك ولماذا؟

فإذا قلبنا صفحات الكتاب بعد ذلك فاننا لا بد ان نجد الكثير من التسطيح والمفاهيم المغلوطة وقصائد الشعر الفجة والحكم والأمثال المتخلفة . . الى آخر قائمة التفاهات التي تمتلىء بها الكتب المدرسية .

وها هو الشاعر أحمد شوقي باشا آخر شعراء البلاط وأكثرهم شهرة ، وهو صاحب الأبيات الخديوية المشهورة . .

أأخون اسماعيل في أبنائه
ولقد ولدت بباب اسماعيلا

وهو أيضاً صاحب بيت :

شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقب .

وهو صاحب الكثير من مواقف التمسح بالأعتاب وتمجيد كل الأنظمة الملكية . . ويبدو انه لبس الدور تماما حتى انه لم يعد يتصور ان مخلوقاً من المخلوقات أو نبات من النباتات أو حيوان من الحيوانات يمكن أن يعيش بدون ملك ، فالحياة في نظر أحمد شوقي (أمير الشعراء) كما كان يسمي نفسه ، لا يمكن أن تسير بدون ان يأمرها ملك بالسير والمخلوقات لا يمكن أن تعيش ما لم يوفر لها الحاكم أسباب الحياة . . ومثل هذا الفهم هو الذي جعل شوقي يتصور ان للنباتات أيضاً ملكا وجعل خبراء المناهج المدرسية ينتفعون بهذه الفكرة الغريبة فيختارون قصيدة شوقي لكي يدرسها طلبتنا وبعد دراستها سوف يتوقفون طويلا أمام ما تقوله لهم من أفكار عجيبة .

يقول شوقي في قصيدته التي جاءت في كتاب المطالعة للمرحلة الاعدادية الجزء الأول :

ملك النبات فكل أرض داره

تلقـاه بـالأعـراس والأفـراح

وهو يقصد ان كنتم لا تعلمون الربيع ، /
فالربيع هو الملك ، وما دام الربيع ملكا فلا بد أن يكون له نفوذ مثل الملوك ولا بد أن يمتلك كل شيء ويهيمن على كل شيء لذلك ينبغي أن تكون كل أرض داره وكل شيء ملك له . .

ولنقلب مزيدا من صفحات كتاب المطالعة الحديثة بالنسبة للسنة الأولى الاعدادية . . وسوف نطالع في صفحة (76) موضوعا بعنوان (المرأة المسلمة) وهذه هي فقرة منه :

(وكل امرأة من العلية أو السوقـة ـ لا يصح زواجها حتى يرجع اليه فيه . . الخ . .) .

ولكم ان تتصوروا معي ماذا يفعل المدرس عندما يسأله تلميذه ما معنى ان تنقسم المرأة الى قسمين قسم نسميه (العلية) وقسم نسميه (السوقة) فإذا قلت

له . . ان المرأة من « العلية » هي المرأة ذات الحسب والنسب والجاه والسلطان وان المرأة من (السوقة) هي المرأة التي خلقت لتكون خادمة أو شيئاً آخر غير كونها انسانة وإذا كان تلميذك عنيداً وأصر على محاصرتك بالأسئلة قائلاً : ولماذا يظل هناك (علية) و (وسوقة)؟ وهنا لا بد أن تقول له بعد أن تسلم أمرك لله . . ان مفتش اللغة العربية وخبراء أمانة التربية يريدون ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وهم لا يريدون ذلك فقط ولا يصرون على تأكيد المفاهيم المتخلفة التي تجاوزناها وثرنا عليها بل يواصلون مسيرة هدم عقول التلاميذ باختيار كل ما هو سلبي مريض متخلف سطحي باهت .

تعالوا نقرأ هذا البيت :

الناس للناس من بـــدو وحاضرة

بعض لبعض وان لم يشعروا خدم .

ولنسأل بعد ذلك كيف يمكن أن يستوعب تلميذ المرحلة الاعدادية كلمة (خدم) وعلى أي وجه يمكن أن يفهمها .. لا شك أنه سوف يفهمها لا بالمعنى الذي قصده الشاعر وانما بالمعنى المتعارف عليه .. وهذا يقودنا الى ضرورة الإهتمام باختيار المفردة اللغوية وتتبع دلالاتها المختلفة ، بحيث يمكن أن نستبعد كل دلالة يمكن أن تقود الى مفهوم سلبي هدام. ولتسقط قصائد الشعراء التي تلهث وراء القافية أكثر من سعيها وراء أي مضمون خلاق ، ولنا عودة للمناهج مرة أخرى .

مُلوكٌ وَمجالِسُ نيابيَّة في الكتب المدرسيّة

يبدو أن لجان تثوير المناهج المدرسية في مراحل التعليم المختلفة ، لم تكن تجتمع من أجل مداهمة الفكر المريض الرجعي المتخلف الذي يتمدد بالطول والعرض وسط صفحات الكتب المدرسية . ويبدو انها أيضاً لم تكن تضع في اعتبارها خطورة المسؤولية التي تولتها وأهمية المعركة التي تخوضها . وهي تعلن الحرب ضد كل فكر يعادي الجماهير ويسقطها من حسابه . . ولأن الجماهير بدأت تنحت ملامح فجرها وتعيد صياغة تاريخها على أسس جديدة ووفق منطلقات رائدة . فقد أوكلت لمثل هذه اللجان مهمة إبطال مفعول هذه الألغام المبثوثة في الطريق ، ومداهمة الفكر المتعفن واكتساحه وتوظيف العلم في

خدمة منطلقات الفكر الرائـد ، وحمايـة الأجيال الجديدة من خطر هذه الجراثيم التي أفرزتها مراحل التخلف والقهـر والاستعباد والـطغيان وعـلاقات الاستغلال الظالمة .

لكن الأمر فيما يبدو كان مجرد « مأخذة خاطر » واكتساب وجاهة أصبحت هدفا أساسيا لأعضاء اللجان الموقرين ، وإلا فما معنى ان تمر كل هذه المدة الطويلة على انتهاء هذه اللجان من أعمالها بحيث أوهمتنا أن كل شيء على ما يرام ، وان المناهج المدرسية قد تخلصت تماما من كل أدران الفكر المريض والمضامين المتخلفة ، واننا ينبغي ان نشكرهم على هذا الجهد الضخم الذي بذلوه في سبيل خدمة أجيالنا الجديدة . ؟ ! ولكن ما حدث هو غير ذلك مع الأسف الشديد ، فالاجتماعـات المتواصلة لهذه اللجان لم تسفر عن شيء فيما يبدو لأن كل شيء ظل كما كان ، بل هو أسوأ مما كان . . ظلت المفاهيم

الرجعية المتخلفة تملأ صفحات كتبنا المدرسية ، وبقي الملوك يمارسون نفوذهم الملكي في ردهات مدارسنا ، وما زالت المجالس النيابية هي الحل الأمثل للمشكل الديمقراطي عند مؤلفي الكتب المدرسية في جماهيريتنا . واذا كان ذلك يعني شيئا ، فانه لا بد أن يعني بالدرجة الأولى ان الذين يرسمون خريطة المناهج في جماهيريتنا ما زالوا بعيدين كل البعد عن تجربتنا ومنطلقاتنا الفكرية والا فما معنى أن تتضمن كتبنا المدرسية كل ما يتناقض مع أطروحات عصر الجماهير ويبتعد عنها ابتعاداً كلياً ؟ فما نعرفه جميعا وما يعرفه أعضاء اللجنة ، وما يقرؤه الطلبة ، ويلقنه المدرسون لتلاميذهم ما زال هو الفكر المتخلف الذي لا يتناقض مع فكر الثورة فحسب ، بل ويعاديه ويقف ضده ، وما من مدرس من هؤلاء الذين يؤمنون بالأطروحات الرائدة لثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة ، الا وواجهته معضلة التعامل مع هذا الفكر الذي يعرف

تماما مدى تخلفه وتعفنه لكنه يعرف ايضا ان مناهج التربية والتعليم لن تسمح للطالب باجتياز مرحلة من مراحل التعليم الا بعد أن يدرس هذا الفكر المريض ، ويسجل اقتناعه به على ورقة الاجابة في الامتحان النهائي ، فهل يمكن أن تظل الأمور على هذا النحو المؤسف ؟ وماذا يمكن أن نسمي صمتنا ازاء هذه الظاهرة ان لم نسمه جريمة ترتكب في حق جماهيرنا ومنطلقاتنا الفكرية ورحلة انتصاراتنا ، ونحن نرسخ سلطة الشعب ونبشر بعصر الجماهير ، ونفتح دروب التحرر والإنعتاق أمام كافة الشعوب المقهورة والمستعبدة . . ماذا يمكن أن نسمي صمتنا إزاء مناهج دراسية تقتات على فكر ما زال يؤمن بالملوك ويمجد أساطير الطغاة والطغيان ويحاول أن يثبت في أعماق الأجيال الجديدة مفاهيم ما أشد خطورتها وتأثيرها السلبي في نفوس جيل المستقبل . . مفاهيم ندعو الى اكتساحها . . ومصطلحات لم تقم الثورة إلا من أجل

تدميرهـا وسحقها نهائيـاً . . مصطلحـات تقسم المجتمع إلى قسمين « عامة » وهو مصطلح يدل على الجماهير الشعبية ، و « خاصة » وهو مصطلح يدل على السادة الذين وحدهم ينبغي أن تتوفر لهم أسباب الحياة . . في حين أن هذه الأسباب ينبغي أن تغيب تماماً عن « الدهماء » و « السوقة » و « الرعاع » وغيرها من المسميات التي تطلق على جماهير الشعب .

ولست هنا في هذه المساحة الصغيرة بقادر على أن أورد أمثلة عن هذه القضية ، لأن مثل هذا الموضوع يجب أن يثار بشكل موسع بحيث يـرصد هـذه الظاهرة ، ويتابعها متابعة دقيقـة تستقصي كل جذورها وانعكاساتها ومسبباتهـا ، والظروف التي أنتجتها ، بل وفرضتها كتيار مضاد لحركة الجماهير وانطلاقتها وهي تؤكد سلطتها وتستلم مقادير أمورها وتقدم الدليل والبرهان في كل لحظة على أن عصور الاستعباد والقهر والطغيان قد اندحرت أمام زحف

الثورة الشعبية وفكرها الرائد . . لكنني هنا سأحاول في هذا المقال أن أقدم بعض الأمثلة لهذا الفكر المتخلف الذي ما زال يتمدد بكامل حجمه القميء وسط صفحات كتبنا المدرسية . . وفي البداية أود أن أورد فقرة من احدى المواد التي يدرسها طلبة قسم الدراسات العليا في جامعة الفاتح شعبة اللغة العربية . . فطلبة هذا القسم يدرسون نصا باللغة الانجليزية عن « المسعودي » المؤرخ ، أورد هنا ترجمته الحرفية. . يقول النص: «بدأ «المسعودي» بهيرودوت العرب الطريقة المثلى والنموذجية في كتابة التاريخ . فبدلا من تجميع أحداثه حول السنوات ، فانه يجمعها حول الأسر الحاكمة والملوك » .

فهل يحق لنا أن نتساءل بعد ذلك : هل هذه هي الطريقة المثلى والنموذجية لكتابة التاريخ كما يقول النص ؟ وهل نفهم من ذلك ان طلبتنا ينبغي أن يعرفوا ان المنهج الحقيقي لكتابة التاريخ ينبغي أن

يدور حول الأسر الحاكمة والملوك ؟ نحن نعرف أن ما علمتنا إياه ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة يدحض هذا المنهج المتخلف ويرفضه . والعالم كله يعرف كيف استطاع الفاتح العظيم أن يكتسح النظام الملكي وان يرفع عن الجماهير كابوس القهروان يخلصها من كافة أشكال وأنماط الاستغلال والعلاقات الظالمة . وان يلغي كافة أشكال وأنماط الحكم التقليدية ، وان يمكن الجماهير لأول مرة في التاريخ من استلام السلطة والثروة والسلاح وان يبشر كافة شعوب العالم المقهورة بعصر الجماهير، عصر الانعتاق والحرية ، وان يضع كرامة الانسان وحريته هدفاً أساسياً يناضل من أجله ويستميت في النضال . . فكيف يمكن أن تكون كتابة التاريخ ، وما هو المنهج الصحيح لكتابته ؟ وما هي الطريقة التي ينبغي أن يتعلم بها طلبتنا قراءة التاريخ وفهمه ؟ هل هو منهج ومنطلقات الفاتح العظيم الذي لا يعترف بسوى الجماهير ويرفض استبداد الفرد أو

الحزب أو الطائفة أو القبيلة أو العشيرة أم هو منهج «المسعودي» الذي يرى أن الطريقة النموذجية المثلى لكتابة التاريخ هي رصد حياة الأسر الحاكمة والملوك ؟

ان الإجابة على ذلك واضحة كل الوضوح ، فالجماهير تضع فكر الفاتح في أعماقها وتنطلق به نحو تحقيق حلم أزلي للانسان في كل مكان ، هو ان تنهزم قوى الشر والطغيان والعبودية وتنتصر ارادة الخير والحياة والحرية . . فهل يمكن أن نسمح لمؤلفي الكتب المدرسية ان يستمروا في تجاهل تجربة هذا الشعب الرائدة ؟!

قبل أن نتوقف عند هذا السؤال ، دعونا نتّبع وصمة أخرى من وصمات الكتب المدرسية المختلفة . . في كتاب « المطالعة الحديثة » للمرحلة الثانوية ، الجزء الأول ، تأليف لجنة من أساتذة اللغة العربية ، وهو مقرر على طلبة السنة الأولى الثانوية . .

في هـذا الكتاب مـوضوع عنـوانـه « من الأدب الانجليـزي . . خطبـة وليم بت الكبـير « لـورد تشاتهام » يقول الموضوع : (كان « وليم بت » أديباً واسع الاطلاع عـلى الأدبين العـريقين : الأدب الاغريقي والأدب اللاتيني . وقد عين في الجيش وهو في سن العشرين ، ولكن خدمته فيه لم تطل . . فقد حدث في سنة 1734 ان أخاه الأكبر « تومس بت » فاز في الانتخابات لمجلس العموم البريطاني في دائرتين نيابيتين ، فاختار إحداهما ، واختار الأخرى أخوه « وليم » فدخل المجلس نائباً عنهـا . . وكان في المجلس شعبة اطلقت على نفسها اسم « الوطنيين » أعضاؤها من المتبرمين بالحكومة ورئيسها « ولبول » وقد دب صراع بين «بت» «والمستر ولبول»، واستمر « بت » يناضل حتى هزم خصمه « ولبول » وجلس « بت » في مجلس البرلمان البريطاني فكان أول حياته السياسية نائباً في مجلس العموم ، ثم انتقل الى مجلس

اللوردات عقب منحه لقب « لورد » وكان في المجلسين رهيب الجانب ، ينطق باسم أمته بما يوحيه ضميره حتى يسقط وهو يخطب) . هكذا تقدم لنا لجنة الأساتذة التي قامت بتأليف كتاب المطالعة الحديثة للمرحلة الثانوية سيرة المستر وليم بت الكبير لورد تشاتهام . . فتصوروا معي طالبا بالسنة الأولى للمرحلة الثانوية ، يجلس في الامتحان النهائي وأمامه ورقة الأسئلة ، ومطلوب منه الاجابة عن السؤال التالي : من هو المستر وليم بت الكبير ؟ . ولماذا منحته ملكة بريطانيا لقب « لورد » ؟ وكيف استطاع من خلال عضويته في مجلس البرلمان البريطاني ومجلس العموم أن يخدم أمته ؟

أو أن سؤالاً آخر أتاه على النحو التالي : تحدث عن الديمقراطية البرلمانية من خلال دراستك لسيرة اللورد وليم بت الكبير الذي جمع بين عضوية مجلس العموم ومجلس النواب البريطاني ؟

أسئلة كثيرة من هذا القبيل يمكن أن تخطر على بال واضعي أسئلة الامتحانات ، والضحية في النهاية هو الطالب ، الذي يجد نفسه مرغماً على الايمان بالديمقراطية البرلمانية لكي يتمكن من الحصول على درجة النجاح .

ولا أعتقد أن هذا المثال الحي على تخلف مناهجنا المدرسية وصدأ عقول هؤلاء الأساتذة الذين يضعون مثل هذه المناهج ، لا أعتقد أنه يحتاج إلى مزيد من التوضيح ، ولسنا في حاجة الى التذكير بمقولات الكتاب الأخضر حول التدجيل على الجماهير ، المتمثل في البرلمانات والأشكال النيابية . . لكن اساتذة اللغة العربية الذين يرسمون خريطة المناهج لهم رأي آخر فيما يبدو رأي لا يقتنع بأن المجالس النيابية تدجيل على الديمقراطية وتمثيل زائف للجماهير. . وهم من أجل ذلك أرادوا أن يعلموا التلاميذ أن المجالس النيابية هي الشكل الأمثل

للديمقراطية . . وإذا لم نصدق فلنقرأ قصة « اللورد وليم بت الكبير » في كتاب المطالعة الحديثة للمرحلة الثانوية .

حكايات كثيرة عن ملوك وسلاطين وبرلمانات وكل ما هو صدىء متخلف فاسد ، تمتلىء بـه كتبنا المدرسية ، بحيث يحس القارىء لهده الكتب ، وكأنها تقوم بحملة تضليل مكثفة لطلابنا عندما تطبع كل هذا الفكر الفج وتحاول دعمه ، وليس في استطاعتنا بعد هذا كله الا ان نطالب بدحر ومداهمة هذا الفكر المضاد ، الذي ينزرع في الكتب المدرسية مثل جرثومة مرض خطير ، يتحدى كل وسائل المقاومة ، وما قدمناه ليس الا أمثلة من كتاب واحد . . وسوف نواصل في مقالات قادمة متابعة ورصد وملاحقة كل مظاهر الفكر المنحرف في مناهجنا المدرسية . . لأن الثورة التي دكت كل معاقل التخلف لا يمكن أن تسمح لفلوله بأن تتسرب من جديد لتعرقل مسيرة

الجماهير وزحفها المقدس نحو إرساء مفاهيم الحق والحرية .

أَدَبٌ يَكْتُبُهُ الأَحْرَارُ

إذا كان لكل ثورة أدبياتها وابداعاتها الخاصة بها والمنبثقة من قلب تجربتها ، فمن الذي يكتب أدبيات ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة ؟ من هو الذي في امكانه ان يجسد هذا التحول التاريخي الهائل في حياة الأمة العربية ؟ من هو القادر على التبشير بهذه المنطلقات الخلاقة التي تتوجه بها ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة الى العالم كله ؟ وهل يمكن للأديب أو الفنان وحده أن يقوم بهذا الدور ؟ وإذا اتفقنا على ذلك فهل يمكن لأدباء ما قبل الثورة أن يضطلعوا بهذه المسؤولية ؟ أم أن جيلا جديداً تفرزه الثورة يكون هو قوة الثورة ونبضها وابداعها وأصالتها ووهجها الحي الخلاق ؟ لعلنا جميعاً ، ظللنا نبحث عن إجابة لمثل

هذه التساؤلات ، منذ أن انطلق صوت القائد في الفاتح من سبتمبر 1969 يعلن ميلاد الفجر ، وانقشاع سحب الظلام والقهر والطغيان وكافة أدوات التسلط والعبودية لكننا جميعاً كتابا وفنانين ، ظللنا نجتهد ، نقترب ونبتعد ، فيما كانت الثورة تتجاوزنا كل يوم ، بل كل لحظة ، بانتصاراتها العظيمة المتلاحقة ، وبمنجزاتها الرائعة ، وبتوجهاتها الخلاقة ، وبأطروحاتها العظيمة الرائدة .

كانت الثورة مفهوماً جديداً في الفكر والسلوك ، لم يكن من السهل على الأديب والفنان الذي ما زال يعيش ويفكر بعقلية تقليدية ، أن يستوعبه ، فالنظرية الأدبية السائدة لم يكن في مقدورها أن تتسع لتجربة ثورية تجاوزت منذ اللحظة الأولى لانطلاقها كافة المفاهيم السائدة في الفكر والسلوك ولعل هذا يبرر الى حد كبير

توقف مجموعة كبيرة من الكتاب الذين كانوا يكتبون قبل الثورة، فأقلامهم تعد قادرة على استيعاب المرحلة الجديدة في حياة هذا الشعب ، لأن المنطلقات الفكرية للثورة الشعبية ، بمضمونها القومي الوحدوي وباتجاهها الجماهيري الذي يكرس قيم الحرية وينتصر لها ، ويكتسح كافة أنماط وأشكال العلاقات الظالمة ، هذه الثورة ، بكل هذه القيم والمضامين والتوجهات انما كانت تناضل بجماهيرها من أجل اقتلاع الجذور العفنة للمجتمع القديم ، واكتساح كافة المفاهيم الصدئة ، التي زرعتها النظم القمعية الاستبدادية التي نشأت في ظل ديكتاتورية الفرد أو تسلط الطبقة أو هيمنة الحزب وكهنوته ، وهي بالتالي قد تجاوزت كل ابداع أدبي أو فني نما في رحم هذه المفاهيم الفردية أو الحزبية أو العشائرية أو الطبقية ، وتحول إلى صدى لها ومعبر عنها .

فالنظرية العالمية الثالثة ، منذ أن تكاملت أركانها

بصدور الفصول الثلاثة من الكتاب الأخضر ، حددت لنا منهجا لرؤية الأمور وتفسيرها على كافة المستويات وبالتالي فان أي إبداع أدبي أو فني يتعامل بمنهج تقليدي ، يظل متناقضاً ومتخلفاً عن روح عصر الجماهير ومنطلقاته الفكرية . . لماذا ؟

لأن قيم عصر الجماهير تضع الحرية في قلب تجربتها وتناضل من أجلها ، حتى يتم انتصار الحرية انتصارا نهائيا بعد أن ترفع كافة الضغوط عن الانسان ، ويتحرر من الخوف ، بعد أن يمتلك كل ما يمكن أن يهدد حريته ، ان بقيت مصادر هذا التهديد في يد أعداء الحرية ، اعداء الجماهير ، ونعني بهذه المصادر : « الثروة والسلطة والسلاح » فبامتلاك الجماهير لهذه المقومات تتأكد سلطة الشعب ، ويتم القضاء نهائياً على كل ما يمكن أن يهدد حرية الانسان .

وإذا كانت قيم عصر الجماهير تستمد من الحرية نبضها الخلاق ، فان قيم المجتمع القديم هي قيم الاستعباد والذل والخنوع والارتباط بمصلحة الفئة المحددة ولقد أوضح لنا الكتاب الأخضر ، عبر استقراء واسع للتاريخ عقم هذه القيم وقصورها ، فكراً وتطبيقا ، فقد شهد التاريخ الانساني صورا متعددة من هذه العلاقات التي قامت على الهيمنة والاستبداد والقهر ، وتسلط الجزء على الكل ، علاقات العبودية ، والعلاقات الاقطاعية ، والعلاقات الرأسمالية ، والأساس في هذه العلاقات الانتاجية والأنظمة الاجتماعية هو الملكية الخاصة لأدوات الانتاج ، وهذه الأنظمة الطبقية ، على الرغم من نهوض كل منها في أول نشأته بدور تاريخي ، الا أن هذه الأنظمة لم تحقق سوى استبداد طبقة معينة وحريتها في قهر الآخرين « حرية طبقة السادة في المجتمع العبودي ، وطبقة مالكي الأرض في المجتمع

الاقـطاعي ، والطبقـة البـرجـوازيـة في المجتمـع الرأسمالي ، وهيمنة أعضاء الحزب في النظام الحزبي .

وكان لا بغ أن تنعكس هذه المفاهيم القاصرة على الأدب والفن ، فنشأت مدارس أدبية ، واتجاهات فنية تستلهم هذا التيار أو ذاك ، وتعبر عن طموحات القلة التي تسيـطر وتهيمن ، فكان أدب البـلاط والسادة ، وعرفنا مدارس أدبية تخلص للطبقة التي أفرزتها أو الحزب الذي تبناها ، وتسربت هذه المفاهيم الينا حتى أصبحنا نستخدمها دون أن نعي دلالتها أو مضامينها أو وعاءها التاريخي الذي نشأت فيه ، وتربت في أحضانه .

فكيف يمكن أن نحدد موقفنا ازاء هذه المناهج الأدبية والفنية ؟ وكيف يمكننا أن نتجاوزها لنبدع الأدب والفن الذي هو في حقيقته افراز طبيعي لحركة الجماهير ونضالها ؟ وبمعنى أكثر دقة كيف يمكن أن

نحـدد بصورة واضحـة مـواصفـات ومنـطلقـات وإبداعيات عصر الجماهير ؟

لنتفق أولا : ان تـطور الفن محكـوم بتـطور المجتمع ، ويعتد التاريخ المنهجي للفن باستخلاص قانون تطوره الخاص وبكيفية عمل هذا القانون الخاص وفق قوانين أعم وأشمل هي قوانين الوجود الاجتماعي ، أي ان التاريخ المنهجي للفن والأدب يعتـد بخلق جمـاليـات تتصـل بحـركـة الـواقـع الاجتماعي المتجدد ، فالفن والأدب يتطوران لأنهما يعكسان حركة واقع متغير ومتجدد نحو الأفضل والذي يحكم حركة الواقع في تغيرها ، هو ما وصل اليه البشر في صلتهم العملية بعالمهم الطبيعي وطبيعة علاقاتهم في نظامهم الاجتماعي ، فالتطور معناه « التغيـير » ولكن (التقدم) معنـاه « التغيـير الى الأفضل » . إذن وبهذا المعنى فان الأدب والفن لا بد أن يرتبطا ويعكسا خلاصة الفكر الانساني الذي يقود الى

الأفضل والى الحلول النهائية والجذرية والحاسمة لكافة معضلات الانسان ومشاكله .

وبهذه المنهجية في فهم الابداع الأدبي والفني من حيث مراحل تطورهما وأساليبهما ومناهجهما ومدارسهما وأنواعهما ، ومن حيث قيمتهما وموضوعاتهما ونماذجهما الانسانية ، بهذه المنهجية نستطيع أن نتبين طريقنا ونكتشف الملامح الابداعية للفن والأدب في عصر الجماهير ذلك لأننا أمام منهج واضح ومحدد ، حددته لنا النظرية العالمية الثالثة المتمثلة في الأطروحات الفكرية التي جسدتها الفصول الثلاثة من الكتاب الأخضر .

لقد حدد الفصل الأول من الكتاب الأخضر الحلول النهائية والحاسمة للمشكل السياسي « الديمقراطية » ، ولكنه قبل أن يضعنا أمام الحل استعرض أمامنا عجز وتناقض وقصور كافة النظريات

التي تدعي انها تحقق الديمقراطية ، سواء أكانت هذه النظريات تقوم على التمثيل النيابي أو ترتكز على هيمنة فرد أو حزب أو طبقة .

فإذا استلهمنا هذا المنهج في التحليل الذي قدمه لنا الكتاب الأخضر ، وحاولنا أن نسير على خطاه في تتبع قصور المناهج والتيارات الأدبية التي لم تكن افرازا لحركة الجماهير بقدر ما كانت تعبيراً عن فكر فرد أو ارتباط بطبقة أو حزب .

إذا احتذينا هذا المنهج فاننا لا بد أن نكتشف جوانب القصور في هذه النظريات الأدبية ، كما استطاع الكتاب الأخضر أن يكشف لنا جوانب القصور في الأبنية السياسية الطبقية والحزبية والفردية ، بعد ذلك كله يمكن لنا أن نهتدي الى أسس النظرية الأدبية التي تنبثق من صميم تجربة الجماهير ونضالها ويتم خلال ذلك طرح كل أدب وفن يرتبط

بقيم المجتمع القديم ، لأن هذا الأدب ليس الا إبداعاً يكتبه انسان مستعبد ، لا يمكن أن يكتب أدبا جماهيريا ، لأنه قبل أن يفعل ذلك ، لا بد أن يصبح حرا ، فالأدب الجماهيري لا يكتبه سوى الأحرار .

هوامش

(1) المسرح العربي من التحريض الى التهريج / عزيز ديب / مجلة قضايا عربية / ديسمبر 1981 .

(2) في الأدب الصهيوني ، غسان كنفاني ، دراسات فلسطينية ، العدد 22 . نشر مركز الأبحاث الفلسطينية ، بيروت 1967.

(3) من بحث لوفد الأدباء المصريين التقدميين بالخارج ، نشره اتحاد الكتاب العرب ، ديسمبر 1979 .

(4) صراع اليمين واليسار في الثقافة المصرية ايرا اسكندر - ابن خلدون .

(5) خليفة التليس ، رحلة عبر الكلمات ، وزارة الأعلام - ط 1 ، 1974 ص 163 .

(6) مناهج الدراسة الأدبية ، شكري الفيصل - دار العلم للملايين ط 3 - بيروت ، ص 31 .

(7) د. شكري فيصل - مناهج الدراسة الأدبية دار العلم للملايين ص 54 .

(8) عبد الله النعمي . المناهج وطرق التعليم عند القابس وابن خلدون ، الجمهورية العربية الليبية ـ وزارة الدولة ، الادارة العامة للثقافة ـ ص 104 -107 .

(9) محمد صلاح الدين مجاور ، تدريس اللغة في المرحلة الثانوية ، أسسه وتطبيقاته التربوية ـ القاهرة ، دار المعارف 1969 ص 449 .

* تاريخ ما أهمله التاريخ ـ مجلة المستقبل ـ عدد 199 -13 ديسمبر 1980 .

* البعد القومي للأدب العربي ـ عبد الرحمن عمار ـ مجلة الأداب ـ العدد التاسع سبتمبر 1979 .

فهرس

مقدمة	5
فئران الإستخبارات الأمريكية .	9
هدف جديد للصهيونية	27
فكر الزروق أم فكر الجماهير	45
رموز الهزيمة في الأدب العربي	59
هذه الحرب التي أنتجت ثقافة الردة	73
كوابيس الأدب الانعزالي	93
الأيام الأخيرة لملوك دولة الأدب	103
نحو منهج جماهيري في تدريس الأدب	115
منطلقات عامة	117
اتجاهات مختلفة في الدرس الأدبي	129
أدب الشحادين	141

عندما يصبح الدرس الأدبي تضليلا 157

الأدب الذي نريد 173

في الكتب المدرسية: حتى النبات يحكمه ملك 189

ملوك ومجالس نيابية في الكتب المدرسية 203

أدب يكتبه الأحرار 217

كُتُبٌ لِلمُؤَلِّف

1) الكلمة الشرارة ـ مقالات في الأدب ـ
دار الكتاب العربي 1947
2) حلم الثورة في الشعب الليبي الحديث
منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع
3) أشرعة الحزن ـ قصص قصيرة ـ
منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان

تحت الطبع

1 ـ الفجر في عيون الشهداء ـ قصص قصيرة ـ
2 ـ القلب الأخضر : مختارات من الأدب الافريقي

رموز الهزيمة

في الثقافة العربية

كل ثقافة لا تعبر عن طموح الإنسان العربي المناضل ضد الاستعمار والصهيونية وخليفتهما الرجعية المحلية، كل ثقافة لا تناضل ضد كل ألوان ودرجات وأشكال التبعية والذيلية والاحتواء، كل ثقافة تعادي الجماهير ولا تكافح من أجل اكتساح العلاقات الإنسانية الظالمة ودحر القيم المتخلفة، هي ثقافة هزيمة واستسلام وردة.



الثمن
300 درهم داخل الجماهيرية